الموشحات وتطورها بين الأصالة والتجديد

د. أحمد عبد المنعم العسيلى

تعريف الموشح :

الموشحة فن جديد من فنون الشعر العربى يمتاز بجماله الفنى وكثرة صوره الشعرية وتعدد قوافيه وكثرة أدواره وتنوع أوزانه التى تلائم الموسيقى والغناء ومن هنا قيل : « الموشحة منظومة غنائية لا تسير فى موسيقاها على المنهج التقليدى الملتزم لحدة الوزن ورتابة القافية وانما تعتمد على منهج تجديدى متحرر نوعا بحيث يتغير الوزن وتتعدد القافية ولكن مع التزام التقابل فى الأجزاء »(١) .

وجاء فى اللسان : الوشاح : حلى النساء ، كرسان من لؤلؤ وجوهر منظومان فخالف بينهما معطوف أحدهما على الآخر تتوشح به المرأة وتشده بين عاتقيها وكشحها .

وقيل : الموشحة من الظباء والشاء والطير التى لها طرتان من جانبيها ، قال الشاعر :

أو الأدم الموشحة العواطى بأيديهن من سلم النعاف

---

(١) الأدب الأندلسى من الفتح الى سقوط الخلافة ص ١٤٥ د/أحمد هيكل . مكتبة الشباب .

والطرتان من الخمار وغيره : مخط الجنين ، وديك موشح اذا كان له خطتان كالوشاح •

وثوب موشـــح اذا كان فيـــه وشى ، وسمى الموشح موشـــحا لأن خرجاته وأغصانه كالوشاح له •• »(٢) •

وعرفه ابن سيناء الملك بقوله : « الموشح كلام منظوم على وزن مخصوص وهو يتألف فى الأكثر من ستة أقفال وخمسة أبيات ويقال له التـــام ، وفى الأقـــل من خمســـة أقفال وخمسة أبيات ويقال لـــه الأقـــرع ، فالتـــام ما ابتـــدىء بالأقفال والأقـــرع ما ابتدىء فيـــه بالأبيـــات •• »(٣) •

وقد سمى هذا الفن بالموشح لما فيه من ترصيع وتزيين وتنـــاظر وصنعة فكأنهم شبهوه بوشاح المرأة المرصع باللؤلؤ والجوهر(٤) •

ولعلنا ندرك سر تسمية هذا اللون من النظم بالموشح أو الموشحة، فالثوب الموشح هو الثوب المزين ، فالوشاح حلية ذات خيطين يسلك فى أحدهما اللـــؤلؤ وفى الآخر الجوهر أو هو جـــاد عريض مرصـــع بالجوهر تشده المرأة بين عاتقها فالفكرة اذن هى فكرة التحسين والتجميل النوع المعتمد على التقابل •

---

(٢) هامش قصة الأدب فى الأندلس ص ١٠٥ د/ محمد خفاجى • مطبعة العهد الجديد •

(٣) دار الطراز لابن سناء الملك • تحقيق د• جودت الركابى ط ـ دمشـــق سنة ١٩٤٩ •

(٤) راجع فى الأدب الأندلسى ص ٢٩٣ د/ جودة الركابى • دار المعـارف بمصر •

وهكذا الموشـــح أو الموشحة أيضا فهى تزدان بالقوافى المنوعة والأوزان المتعددة(٥) .

اذن فـ « فن الموشحات » فن جـــديد فى الشعر العربى بمـــا تطورت اليه وبما أحدثت فى الشعر من موســـيقى زادت من العنصر الجمالى فى الشعر العربى عامة وفى الشعر الأندلسى خاصـــة حيث تطلبته ظروف العصر ، ومن حق كل عصر أن يجـــدد فى الموســـيقى مادامت المسألة مسألة عنصر جمالى . ولهذا يقول الأستاذ الرافعى فى سبب اختراعها : «وهو عندنا أن الذى ينبههم الى اختراع أوزان التوشيح انما هو الغنـــاء »(٦) .

وفى موقف آخر يقول : وقد كان التلحين ضروريا عند شـــعراء الأندلس وما اخترعوا الموشحات الا لأن أوزانها أحفـــل به من أوزان الشـــــعر(٧) .

أصـــل الموشحات : ــ عرض ومناقشة ــ :

قضية أصل الموشحات من القضـــايا المثارة دائما فى ميـــدان النقد الأدبى وفى كل عصر من العصور منها فقد وجدنا العـــديد من

---

(٥) الأدب الأندلسى ص ١٤٧ د/ أحمـــد هيـــكل . فكرة الأوزان المتعددة ، قد تكون بالنسبة لمجموع الموشح لا للموشح الواحد اذ يلتزم فيه وزن واحد كالقصيدة تماما .

(٦) تاريخ آداب العـــرب جـ ٣ ص ١٦٠ للرافعى ، دار الكتـــاب العربى ــ بيروت .

(٧) السابق ٣/٢٩٧ .

الآراء فى القديم ومازال تلقى بظلالها ويتردد صداها فى المناقشات التى تعنى بالأدب وتهتم بقضاياه وهذا ما يجعلنا نقول : الموشحات والبحث عنها وفيها موضوع رحب الجوانب أفاض فيه الكثير من الأدباء والنقاد والمؤرخين ومازال الموضوع مجال بحث ودراسة لكثرة الآراء المتصارعة فيه ، والمختلفة فى وجهات النظر حول هذا الفن الأدبى الذى وردت فيه تساؤلات كثيرة منها : ما يدور حول نشأتها الشرقية الأصل أم أن أصلها أندلسي ؟ واذا عرف الأصل فما أسباب نشأتها ؟ واذا عرف الأصل وأسباب النشأة يبقى السؤال الأخير عن الأصالة والتجديد فى فن الموشحات أو بصيغة أخرى ما منزلة الموشحات بين الأصالة والتجديد ؟ ولكى تكون الاجابة مرضية ونطمئن اليها أولا ، ونأمل أن يطمئن لها القارىء ثانيا ، نرى من الواجب مراجعة العديد من الآراء التى ذكرت من الأدباء والنقاد والمؤرخين حول القضية التى نريد الكلام فيها والبحث عنها . وهى أصل الموشحات أشرقية هى أم غربية ؟

من الآراء التى دارت حول هذا الموضوع وبالمراجعة والبحث والاستقصاء يمكن القول ان هذا الأمر ليس يدرك بسهولة ، وذلك لكثرة الآراء وتشعبها فمن قائل انها شرقية وهذا فريق ، وفريق آخر يرى أنها غربية وفى الوقت نفسه نجد خلافا بين أصحاب الرأى الأول — القائلين بأنها شرقية — فيما بينهم أتعود الموشحات الى المزدوجات والمخمسات العباسية ؟ أم الى موشحة نسبت الى ابن المعتز الخليفة العباسى ؟

وكذلك نجد خلافا بين أصحاب الاتجاه الغربى فيما بينهم أيضا فمنهم من قال بأندلسيتها ومنهم من سار على أنها أسبانية لا أندلسية ولكل أنصار ومؤيدين ، ولقد آثرت أن أذكر هذه الآراء وتلك .

أولا : آراء القائلين بأن أصل الموشحات المشرق ومناقشتهم :

ذهب فريق من الباحثين العرب المحدثين الى أن أصل الموشحات المشرق العربى بمعنى أنهـا عرفها الشرق فى بعض محـاولاته ، ثم تطورت فى الأندلس فى شكلها النهائى •

ويتخذ بعض الباحثين موشحة وردت فى ديوان ابن المعتز ذريعة وحجة فى هذا المجال وهى :

أيها الساقى اليك المشتكى قد دعوناك وان لم تسمع

ونديم همت فى غـرته

وشربت الراح من راحته

كلما استيقظ من سكرته

جذب الزق اليه وانكى وسقانى أربعا فى أربع الموشحة

وهذه الموشحة بلا نظـير فى ديوان ابن المعتـز ، فلو كانت من عمله لجدد المحـاولة ثانية وثالثـة على أن هذه الموشـحة ام تذكرها المصادر الشرقية على أنها لابن المعتز أو من محاولاته التجديدية ، اذ خصته هذه المصادر بأنه صاحب تشبيهات مميزة ملوكية •

وقد ذكرت المصادر الأندلسية هذه الموشحة منسوبة لابن زهـر

---

(١) راجـع قصـة الأدب فى الأندلس ص ١٠٦ ـ ١٠٧ د/ محمد عبد المنعم خفاجى ، فى الأدب الأندلسى ص ٢٨٦ د/ جودت •

(٢) ديوان ابن المعتز ص ٥٣ مطبعة المحروسة مصر سنة ١٨٩١م •

وعلى ذلك فهذه الموشحة دخلت ديوان ابن المعتز بفعل الخلط ، والتصحيف من النساخ وهو أمر كثير يعرفه محققو التراث العربى .

وأما الدليل الثانى فى مشرقية الموشحات فهو ظهور المخمسات والمسمطات والمزدوجات فى الشعر المشرقى(٣) .

ومن أصحاب هذا الرأى الدكتور شوقى ضيف فى كتابه : «تاريخ الأدب العربى فى العصر العباسى الأول وكتابه « الفن ومذاهبه فى الشعر العربى » .

ويذكر الدكتور شوقى ضيف عندما يتحدث عن التجديد فى الأوزان والقوافى قوله : وقد مضى شعراء الغزل يعدلون غالبا عن

---

(٣) المخمس : هو أن يؤتى بخمسة أقسام من وزن واحد ، وخامسها بقافية مخالفة للأربعة قبلها ثم بخمسة أخرى من الوزن دون القافية الأربعة الأولى ويتحد القسم الخامس مع خامس الأول فى القافية .

وفى اللسان : شىء مخمس له خمسة أركان والمخمس من الشعر ما كان على خمسة أجزاء وليس ذلك فى وضع العروض وقال ابو اسحاق : اذا اختلفت القوافى فهو المخمس .

المسمط : أن يبتدىء الشاعر ببيت مصرع ثم يأتى بأربعة أقسام على غير قافيته ثم يصير قسما على قافية البيت الأول وهكذا . وقال فى الصحاح: المسمط من الشعر ما قفى أرباع بيوته وسمط فى قافية مخالفة .

المزدوج : يتألف المزدوج من أرجوزة لكل شطرين منها وقد عرفوه بأن يؤتى ببيتين مقفيين من مشطور أى بحر وبعدهما غيرهما بقافية أخرى .

« راجع البناء الفنى للقصيدة العربية ص ٧٩ وما بعدها د/ محمد عبد المنعم خفاجى مكتبة القاهرة . الطبعة الأولى » .

النظم فى الأوزان الطويلة المعقدة الى نظم الأوزان الخفيفة البسيطة فان ألموا بالأوزان الأول جزؤها غالبا حتى تحمل ما يريد المغنون والمغنيات من أنغام مجهورة أو مهموسة ، وانتقلت موجة هذا الغناء فى أواخر العصر الأموى الى الكوفة حتى اذا كان العصر العباسى الأول بلغت فى مدن العراق كل ما كان ينتظر لها من حدة وقوة .. فان القصيدة الطويلة تكاد تختص بالشعر الرسمى : شعر المديح والرثاء بينما تشيع المقطعات فى الغزل والهجاء .. ، ومضى الشعراء ينظمون فى الأوزان الخفيفة والمجزوءة ، ولم يلبث الشاعر العباسى أن حاول النفوذ الى أوزان جديدة ، وعلى نحو ما جددوا — لهذا العصر — فى الأوزان جددوا فى القوافى مستمدين ما سموه باسم المزدوج والمسمطات(٤) .

وانما سمى مسمطا من السمط وهو قلادة تنظم فيها عدة سلوك تجتمع عند لؤلؤة أو جوهرة كبيرة وكذلك كل دور فى المسمط يجتمع مع الأدوار الأخرى فى قافية الشطر الأخير ، ومن أمثلة المسمط المربع خمرية لأبى نواس تتوالى على هذا النمط :

سلاف دن كشمس دجن
كدمع جفن كخمر عدن
طبيخ شمس كلون ورس
ربيب فرس حليف سجن

وواضح أنه بنى شطورها على تفعيلة واحدة ، ومن المسمطات

---

(٤) تاريخ الأدب العربى فى العصر العباسى الأول ص١٩٣ دار المعارف

المخمسة وهى أكثر شيوعا من المربعة ومنها ما أنشده الدميرى لأبى نواس :

ياليلة قضيتها حلوة مرتشفا من ريقها قهوه
تسكر من قد يبتغى سكره ظننتها من طيبها لحظة

يا ليت لا كان لها آخر

ومن ثم يعلق على ذلك بقوله (٥) « وقد اختار الآخر المخمس ... » .

وكأنه هو الذى ألهم الوشاحين الأندلسيين أن يختموا بعض موشحاتهم بأقفال عامية ، ونفس الموشحات نجد صورة تقترب منها اقترابا شديدا سواء من حيث الأدوار والمراكز أو الأقفال اذ ينسب لديك الجن صنعة منظومة على هذا النحو :

قولى لحيفك ينثنى عن مضجعى عند المنام
عند الرقاد عند الهجوع عند الهجود عند الوسن
فعسى أنام فتنطفى نار تأجج فى العظام
فى الفؤاد فى الضلوع فى الكبود فى البدن
جسد تقلبه الأكف على فراش من سقام
من قتاد من دموع من وقود من حزن
من معاد من رجوع من وجود من ثمن

---

(٥) تاريخ الأدب العربى فى العصر العباسى الأول ص ١٩٩ ـ ٢٠٠ د/ شوقى ضيف .

وواضح أن هذه المنظومة نشـأت من فكرة بسيطة هى تـكرار قافية البيت بروى جديد وكأنما وقعت هذه المنظومة لمقدم بن معـافر القبرى الأندلسى شاعر الأمـير عبد الله بن محمد المروانى « ٢٧٥ — ٣٠٠هـ » فنظم على نمطها بعض منظوماته اعجـابا بها ، وكتب لهذا النمط أن يشـيع بعـده في الأندلس باسـم الموشـحات وان يكسب الوشاحون فيه من الأنغام ما يمتع الأسماع والأفئدة(٦) .

ويقول الدكتور شوقى ضـيف : مؤكدا على تقليـد الأندلسيين لشعراء المشرق بصفة عامة « ونحن نتساءل هل رأينا حتى الآن شـيئا جديدا فى الأندلس ان الشـعراء الأندلسيين لم يستطيعوا أن يحدثوا فى عصر ملوك الطوائف وما تلاه من عصور الى سقوط غرناطة اتجاها جديدا فى الشعر العربى يمكن أن نسميه مذهبا وهل عندهم الا التقاليد والاطراد مع الأفـكار والصـور السابقة .. فهم ينقلـون انمـاذج العباسية ويحاكونها بدون أن يعرفوا شيئا عن تاريخها وما بينهـا من فواصـل .. »(٧) .

ومعنى ذلك أن الشـاعر الأندلسى كان صورة للشـاعر المشرقى وأنهم أى الأندلسيين لم يحدثوا لونا جديدا فى الشـعر العربى حتى فن الموشـحات اذ انهم جمدوا عند حد التقليد والسـير على نهـج

---

(٦) تاريخ الأدب العـربى فى العصر العبـاسى الأول ص ٢٠٠ د/ شوقى ضيف .

(٧) الفن ومذاهبه في الشعر العربى ص ٤٤٩ — ٤٥٠ د/ شوقى ضيف . دار المعارف الطبعة العاشرة .

المشرق وترسم خطاه فقط حتى فى شعر الطبيعة تأثروا فيه بالعباسيين من أمثال أبى تمام وابن الرومى وكذلك الموشحات عناية الأندلسيين بها وبالغناء ، فهو يذكر انهم « جمدوا غالبا عند التقليد والصوغ على نماذج المشرق .. ولعل الغناء وما قبله من موشحات وأزجال هو الجانب الطريف فى دراسة الشعر الأندلسى فقد سارعت الأندلس الى العناية بالآداب الشعبية ولكن ينبغى ايضا أن لا يبالغ فى ذلك فان هذه العناية لم تحدث كما نقول تغييرا فى صياغة التفكير الفنى عند الأندلسيين وانما كل ما هناك انهم يتخلصون من التقيد بالوزن كما يتخلصون من التقيد بالقافية الواحدة وهذا كل ما عندهم من تجديد وهو تجديد شكلى اضطرتهم اليه ظروف الغناء وحقا هم قد جددوا كثيرا فى الأوزان ولكنا عرفنا فى غير هذا الموضوع انهم سبقوا بذلك، سبقهم العباسيون اذ أوشكوا أن يغيروا صورة « الرتم الموسيقية » القديمة تغيرا تاما واذن لا يبقى للاندلسيين فى موشحاتهم سوى التجديد فى القافية .. ونحن لا يمكن أن نعتد بهذا الجانب كمذهب جديد فى الشعر العربى »(٨) .

ويختم حديثه عن الموشحات مؤكدا رأيه بكثرة التكرر الذى نجده فى قوله : « وانما هم ينقاون ويلفقون لا عن انتخاب بل كما يقع لهم وكما يعلمهم أساتذتهم من المشرقة وقد أخذوا يصنعون بالمرشحات والأزجال ما صنعوه بقصائدهم من الخلط فيها بين صياغات مذاهب الصنعة والتصنيع والتصنع وظلوا يستمدون فى دلالاتها وصياغتها من معين المشرق ومذاهبه الفنية(٩) .

---

(٨) الفن ومذاهبه فى الشعر العربى ص ٤٥٠ ـ ٤٥١ .

(٩) الفن ومذاهبه فى الشعر ص ٤٥٥ د/ شوقى ضيف .

وكذلك ممن عاد بأصل الموشحات الى الشرق الأستاذ / بطـرس البستانى حيث يقول : « ولابد من القول أن الخروج على نظام الشعر ظهر عند المشارقة فى صدر الدولة العباسية فان بعض الشعراء أخذوا ينظمون الفنون العلمية ، والقصص الطويلة مزدوجات •• ونظمـوا أيضا المسمطات والمخمسات كما فعل قطرب فى مثلثاته غير أن فحول الشعراء تحاشوا هذه الأنواع ورأوا فيها عجزا وضيقا وآثروا التزام القافية الواحدة الا بشارا وابن المعتز فقد ذكر ابن رشـيق أن الأول كان يصنع المخمسات والمزدوجات عبثا بالشعر ، وأما الثانى فصـنع مزدوجة فى ذم الصـبوح •• وسرى فن المسـمطات من المشرق الى المغـرب كما سرى غـيره من الفنـون والعلـوم فنظم فيه شـعراء الأنـدلس »(١٠) •

وهناك من قال شهدت الأندلس منذ أواخر القرن الثـالث حتى نهاية العصر الغرناطى وعلى مدى ستة قرون تقريبا أكبر حركـة من حركات التجـديد فى تاريخها الأدبى فقد اسـتوحت من المسـمطات الشرقية فنا جديدا من فنون الشعر الدورى هو فن الموشـح ومضت ترعى هذا الفن الناشىء وتعمل على توطيد أركانه حتى اسـتوى فى أنماطه المبتكرة التى جعلت منه فنا مستقلا له قواعده وأصوله ، وهى أنمـاط لم تنفصل عن الغنـاء •• ولم يلبث أن أعجب بها المشـارقة

---

(١٠) أدباء العـرب فى الأندلس وعصر الانبعـاث ص ٧٨ بطـرس البستانى ، دراسات أدبية فى الشعر الأندلسى ص ٩٠ د/ سعد اسماعيل شلبى • دار نهضة مصر •

فجمعوها وحاولوا أن يولدوا منها أنماطا جديدة »(١١) ٠

وهناك العديد من الآراء الأخرى والقائلة بأن أصلها المشرق(١٢) وعند مناقشة هؤلاء ومراجعة الآراء الواردة عنهم للاخذ بهـا أو الرد عليها نقول : « ان كنا لا نستطيع أن ندفع هذا التجديد الشعرى فى الموشحات خاصة وأنه تزامن مع وجودها واختراعها ولأن الابتـكار لا يأتى من فراغ ولا ينهض ويتطـور ويرتفع من غير أسـاس فاننا لا نستطيع كذلك أن نعطى الظاهرة المشرقية كل أثر وأن نجعل المشرق هو الأصل النشأة أو هو الذى ابتـكر فن الموشحات ونقـول مع من قال : « ان الشـعراء الأندلسيين لم يسـتطيعوا أن يحدثوا اتجـاها جديدا فى الشعر العربى يمكن أن نسميه مذهبا وهل عندهم الا التقليد والاطراد فى الأفكار والصور السابقة وكل ما يصنعه الشـعراء انهم يقلـدونها ٠٠ »(١٣) ٠

وخصوصا ان هذه الآراء القائلة بأن المشرق هو أصل النشأة طعن فيها وقوبلت بعدم الرضى والاعتراض بالأدلة الواضحة من الفـريق الثانى القائل بأن الأندلس هو المخترع لهذا الفن ففى الرد على موشحة ابن المعتز تجد من يقول :

---

(١١) مقدمات ديوان الموشحات الأندلسية ص ٥ تحقيق د/ سيد غازى منشأة المعارف الاسكندرية ١٩٧٩ ٠

(١٢) انظر الأدب الأندلسى موضوعاته وفنونه د/ مصطفى الشكعة، نظرات فى تاريخ الأدب الأندلسى لكامل كيلانى ٠

(١٣) الفن ومذاهبه فى الشعر العربى ص ٤٥٠ د/ شوقى ضيف ٠

« وفى رأى أن هذا الموشح ليس لابن المعتز بل هو بعيد عن روح الشاعر وعواطفه وفنه الأدبى ولا تمثل شيئا من نظراته فى الحياة وليس فيها تشبيه واحد من التشبيهات التى عرف بها ابن المعتز أنها بعيدة عن جو ابن المعتز وسماته الفنية وجو الأندلس أغلب عليها .. وقد كنت أظن أنها لابن المعتز الأندلسى مروان بن عبد الرحمن الأمير الشاعر المشهور (٣٥٢ ــ ٤٠٠) (١٤) .

ولكن وجدت فى بعض المصادر نسبتها لأبى بكر محمد بن عبد الملك بن زهر الأندلسى الاشبيلى (٥٠٧ ــ ٥٩٥) واذا كان صحيح النسبة لابن زهر فانه من المشكوك فيه حينئذ من هو السابق الى ابتكار نمط هذه الموشحة . أهو ابن زهر أم ابن بقى الأندلسى المتوفى عام ٥٤٠هـ . والذى تروى له موشحة عارض بها الموشحة المنسوبة لابن المعتز ولشاعر آخر موشحة على نمط الموشحة المنسوبة لابن المعتز أولها :

هلك الصب المعنى هلّ لكا فى تلاقيه بوعد مطمع (١٥)

ومن الانصاف كذلك ان لا تأخذ برأى جامع الديوان ونطمئن لنسبتها الى ابن المعتز اذ هناك من الأمور ما يدعو الى الشك وعدم الارتياح ومن ذلك :

---

(١٤) راجع ترجمته ص ٤٤٧ بغية الملتمس للضبى جـ ٢ ترجمة رقم ١٣٤٣ .

(١٥) قصة الأدب فى الأندلس ص ١٠٨ د/ محمد خفاجى .

١ ــ فلو كان قائلها ابن المعتز كما قيل فلماذا لم يذكر غيرها في الديوان واقتصر في الديوان على هذا النص فقط فلو كان فعلا هو القائل أوجدنا بجوارها الكثير وان لم يكن الكثير فيكون القليل ولكن الواقع كما ذكر كثير من النقاد أنها منفردة في الديوان،واثباتها في ديوانه لا يكون دليلا على أنها له هذا الى جانب أن جامع الديوان شخص مجهول غير موثوق به فضلا عن أن ابن سناء الملك يضم هذا الموشح ضمن نماذج الموشحات الأندلسية وعندما نجد ابن سناء الملك يصنع ذلك ونجد « ابن دمية » في كتاب « المطرب » من أشعار أهل المغرب ينسبها الى « أبي بكر محمد بن أبي زهره سنة ٥٩٥هـ » لا يتطرق الى ذهننا أي شك في أن هذه الموشحة أندلسية ويدعونا ذلك الى ترجيح أن تكون الموشحات أندلسية لم يعرفها المشرق قبل أن يتقنها أهل المغرب ، كما يدعونا الى التريث فلا نعدو وراء هؤلاء الذين يقولون بأن المشرق قد سبق المغرب الى نظم الموشحات(١٦) .

وهكذا ينتفي أن يكون المشرق منشأ هذا اللون الشعري بعد أن انتفى كون ابن المعتز صاحب الموشحة الواردة خطأ في الديوان ، أما كون المشرق عرف لونا جديدا من الشعر ، تتعدد فيه القوافي أو تنظم فيه القصيدة على فقرات تختلف قوافيها كالرباعيات أو المسمطات فليس معنى هذا أن الموشحات مأخوذة من ذلك أو أن هذا اللون من الشعر قد أوحى الى الشاعر الأندلسي بفن الموشحات ، وان مخترع الموشحات جعله نموذجا وبنى على أساسه حين اخترع موشحته الأولى

---

(١٦) دراسات أدبية في الشعر الأندلسي ص ٩١٢ د/ سعد شلبي.

واذا ظن البعض ذلك فليس هذا من الصواب كما يذكر بعض الباحثين قوله : « يبدو أن هذا الاحتمال بعيد ، لأننا لا نعرف للأندلسيين رباعيات ولا مسمطات فى تلك الفترة من تاريخهم حتى نقطع ببناء الموشحات على هذا النوع من النظم »(١٧) .

هذا ومن جهة أخرى فان بناء هيكل الموشحة بما وصلت الينا بناء مغاير تماما لهذه الألوان التجديدية فى المشرق .

على أن ابن سناء الملك وهو أول من نظم الموشح من المشارقة يقول

« ان الموشحات مما ترك الأول للآخر وسبق بها المتأخر المتقدم وأجلب بها أهل المغرب على المشرق .. وصار المغرب بها مشرقا لشروقها بأفقه »(١٨) .

ويقول ابن بسام : « أن أهل الأندلس هم الذين نهجوا طريقها ووضعوا حقيقتها »(١٩) .

ويقول ابن خلدون : « وأما أهل الأندلس فلما كثر الشعر فى قطرهم وتهذبت مناحيه وفنونه وبلغ التنميق فيه الغاية استحدث المتأخرن منهم فنا منه سموه « بالموشح » ينظمونه أسماطا أسماطا وأغصانا أغصانا .. وكان المخترع لها بجزيرة الأندلس مقدم بن معافر الفريرى من شعراء الأمير عبد الله بن محمد المروانى وأخذ ذلك

---

(١٧) الأدب الأندلسى من الفتح الى سقوط الخلافة ص ١٥٥ د/أحمد هيكل ـ مكتبة الشباب .

(١٨) دار الطراز فى عمل الموشحات ص ٢٣ تحقيق الركابى ط دمشق ١٩٤٩م . بيروت .

(١٩) الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة ق ١ م ٢ ص ١ دار الكتب

عنه أبو عبد الله أحمد بن عبد ربه صاحب كتاب العقد الفريد »(٢٠) ٠

هذا من القدماء كذلك نجد الكثير من النقاد المحدثين الذين يؤيدون القول بأنها أندلسية الأصل والنشأة مهتدين فى ذلك بأقوال الآخرين ٠

ثانيا : آراء القائلين بأن أصلها أندلسى :

١ ــ « يروى تاريخ الأدب أن بلاد الأندلس هى المنبت الأول لفن الموشحات وأن غيرهم من أبناء العرب قد تعلموا هذا الفن على أيديهم وكان لحياة الترف والنعيم والاستمتاع بمباهج الحياة وزينتها والشغف بالطرب والغناء وتشجيع الملوك والأمراء كان لهذا كله أثر كبير فى نشأة هذا الفن فظهر فى أواخر القرآن الثالث الهجرى واكتملت معالمه فى القرن الرابع الهجرى ، وعرفه الشرق بعد ذلك ونبغ فيه ابن سناء الملك فى القرن السادس »(٢١) ٠

وهذا يدل على أن معرفة فن الموشحات فى الأندلس كان يسبق ظهورها فى المشرق بعدة قرون ٠

وقد وجد ابن سناء الملك تزكية لنفسه وتفتيقا لذهنه فهام بها منذ نشأته الأدبية حيث أخبرنا بذلك فى قوله : « وكنت فى طليعة العمر وفى رعيل السن قد هممت بها عشقا وشغفت بها حبا وصاحبتها سماعا وعاشرتها حفظا وأحطت بها علما واستخرجت خباياها واستطلعت خفاياها »(٢٢) ٠

---

(٢٠) مقدمة ابن خلدون ص ٦٩١ ــ ٦٩٢ ٠

(٢١) ابن سناء الملك ١٣٦/١ ٠ تحقيق محمد ابراهيم نصر ــ دار الكتاب العربى سنة ١٣٨٨هـ ــ ١٩٦٨م ٠

(٢٢) ابن سناء الملك جـ ١ ص ١٣٧ ٠

وكان ابن سناء ذكيا وذا عقل ناضج يفهم ما يقال بسرعة اتصل برجل مغربى تعود أن يشغل نفسه بتأليف الموشحات المغربية بالاضافة الى الأزجال فاتصل به ابن سناء الملك وناقشه فى الموشحات حتى أصبح فيها خبيرا »(٢٣) .

وعندما نتحدث عن منزلة ابن سناء الملك بين الوشاحين نجد خير دليل على صحة هذا الكلام ما ذكره بعض الباحثين عنه ، « لقد حدثنا ابن سناء نفسه فى دار الطراز عن مدى ما وصل اليه فى هذا الفن وأنه قد نسج فيه على منوال المغاربة فسار سيرهم وحذا حذوهم بل أنه كان متواضعا حين بين أن موشحاتهم هى الأصل وموشحاته هو كظلها فقال :

« وكيفما كان فموشحاتى تكون لتلك الموشحات كظلها وخيالها وأشهد أنها ناقصة عن قدر كمالها »(٢٤)

ونجده كذلك يلتمس العذر لنفسه ويطلب من غيره التماس العذر له لأنه نشأ فى بيئة تختلف عن بيئتها فبيئته تختلف عن بلاد الأندلس تلك التى نشأت فيها الموشحات « واعذر أخاك فانه لم يولد بالأندلس، ولا نشأ بالمغرب ولا سكن أشبيلية ولا أرسى على مرسيه ولا عبر على مكناسة ، ولا سمع لأرغن ولا احق دولة المعتمد وابن حمادح ولا لقى الأعمى وابن بقى ولا عبادة ولا الحصرى ، ولا وجد شيخا أخذ عنه هذا العلم ولا مصنفا تعلم منه هذا الفن فان رايته قد نهض

---

(٢٣) السابق جـ ١ ص ٤٩ .

(٢٤) ابن سناء الملك حياته وشعره ١٣٧/١ تحقيق الأستاذ /محمد ابراهيم نصر .

به طبعه ، وأخذ بيده ذهنه وأضاء له خاطره ، وهدته قريحته الى الطريق ومشى فيها بلا دليل واستأنس بلا رفيق ،وجد الى أن وجد ، وطالب الى أن غلب فلا تجحد حقه ، واعرف له وزن فهمه ولطف ذهنه وحسن ذوقه وحسن غوصه وبعد غوره وقدر همته،وان رأيت تعليمه اك نعمة فأعرف له قدر نعمته وان رأيت خطأ فكن له ساترا ولصاحبه عاذرا أو رأيت صوابا فكن له شاهرا ولفاعله شاكرا »(٢٥) .

ونحن نجد ابن سناء الملك يعترف بادىء ذى بدء بأنه مسبوق من شعراء المغرب وأن الأندلسيين هم السابقون وهو الذى نسج على منوالهم وسار على طريقتهم ونحن لا ننكر وجود المزدوج والمخمس والمسمط عند العباسيين ولكن أمام رأى الكثيرين القائلين بأواية الموشحات الأندلسية لا يسعنا الا أن نتريث فنتساءل : اذا كان أصلها شرقيا فما بال الأندلسيين يبرزون فيها وينبذون المشارقة ؟

وفضلا عن ذلك كله فان السبق الكبير والافتنان البارع الذى نجده فى الموشحات الأندلسية لا يقلل من قيمتها ان وجدت له بذور شرقية وقد يكون يانعا وترعرع فى الأندلس نابتا من بذور أخرى مشابهة فى نوعها وتربيتها للبذور والتربة العباسية »(٢٦) .

---

(٢٥) دار الطراز ص ٤٠ ، ابن سناء الملك ١/١٣٨ تحقيق الأستاذ / محمد ابراهيم نصر .

(٢٦) دراسات أدبية ص ٩٢ د/ سعد اسماعيل .

ومن أصحاب الاتجاه الغربى من يزعم أن الموشحات ذات نشأة أسبانية لا أندلسية وهذا ما توهمه عبارة غرسية غرس « قدمت أسبانيا للاسلام فنها الشعرى الخاص بها وهو فن الأرجال والموشحات » وأن الموشحات ما هى الا تقليد من عرب الأندلس لألحان أعجمية كانوا يسمونها ويغنون بها محاولين تقليدها أو تقريبها فجاءت الموشحات او أن هذه الأغانى كان يترنم بها نساء من « جليقة » فى المنارة والحفلات فسمعهن الناس وأعجبوا بأغانيهن وقلدوهن •

٣ ــ كما يذهب نفر ثالث الى أن أصله رومانى •

والبعض من الغربيين حاول أن يجد علاقة ما بين الموشحة والزجل من ناحية ، والفن الشعرى العبرى المعروف بالبزمون والتسبيحات اللاتينية التى يرددها جمهور المصلين عقب كل فقرة من فقرات الترتيل الدينى وهى فى الغالب آيات من الكتاب المقدس •

ولكن نجد الرد على هذا يرد على لسان الدكتور سعد شلبى فيقول : « ونحن من جانبنا لا نستطيع أن نأخذ هذه الآراء على علاتها فان كثيرا من أصحابها نفوا على أهل الأندلس أن يكونوا سابقين الى فن التوشيح أو لم يكلفوا أنفسهم عناء التدبر والبحث الدقيق فاعتقدوا كل سانحة فكرية •• والفن درجة عالية يصفها الأدباء المتقنون ، ومن هنا نرى أنه غير أسبانى لأن الأسبانى ما كان يعرفه لا الوجدة العربى فى شبه الجزيرة فضلا عن أن البيئات المجاورة لأسبانيا كفرنسا مثلا لم تعرف الموشحات الا بعد اتصالها بالعرب أو اتصال العرب بها ولم يقل بذلك مؤرخ قديم كابن بسام أو الحجار وابن سعيد أو غيرهم(٢٧) •

---

(٢٧) دراسات أدبية فى الشعر الأندلسى ص ٩٥ د/ سعد شلبى •

وما يؤكد ذلك قوله « واقتباس الفنون من الأديان غير الاسلامية أمر غير مألوف في الفنون العربية والأدبية فكيف يكون تطورا لأغنية أو لترنيمة دينية أو لتطريب النساء فى المنـازل والديار . ان الذين رجعوا بأولية الموشحات الى أصل غير أندلسى يعتمـدون على حجج واهية وتصورات غير مقبولة وجلهم من المستشرقين الذين تميل بهم أهواؤهم عن الحقيقة يلتمسون دليلا أى دليل لما يذهبون اليه(٢٨) .

٤ ــ والحقيقة أن فن الموشحات ليس لمخترع واحد ولم ينشـأ من منبع واحد ، ولكن من الصـواب أن نذكر أن مرجعها الى عـدة منابع أسهمت فى تكوينها أهمهـا المؤثرات الاجتمـاعية والاقليميـة والحضارية والأدبية والغنائية والاقتصـادية وشأنها شأن كثـير من الفنون التى تظهر فى البداية بصورة مبسطة ثم لا تلبث بعد ذلك أن توضع لها قواعد وأسس وتظهر معالمها الواضحة ، فالموشحات نشأت فى البداية استجابة لظروف العصر وحاجة المجتمع الى الغناء ثم بعد ذلك أخذت ، طابع الفن المستقل ، ومما يؤيد ذلك قول بعض الباحثين :

« ولهذا نتوقع أن تكون المحـاولات الفنية الأولى قد قام بهـا القبريان محمد بن محمود ومقدم بن معافر الا أنها لم تكن على درجة ذات بال من الجودة كتلك التى قام بها شاعر القرن الرابع أحمد بن عبـد ربه »(٢٩) .

---

(٢٨) السابق ص ٩٥ د/ سعد شلبى .

(٢٩) السابق ص ٩٦ د/ سعد شلبى .

ومن الباحثين من يمد جذور الموشحات الى عصر الاسلام فيقول:

« ويقال أن أول التواشيح هو المنسوب الى أولاد النجار عند قدوم النبى — صلى الله عليه وسلم المدينة ، فاستقبلته الجوارى ينشدن :

أشرقت أنوار محمد واختفت منه البدور
يا محمد يا محمد أنت نور فوق نور

على أن هذا هو صورة بدائية للموشحات وقد جدد الشعراء العباسيون فى القصيدة العربية تخلصا من قيود القافية ولكى يلائم الشعر الغناء فاخترعوا المسمط والمخمس والمزدوج والدوبيت والمواليا والسلسلة »(٣٠) .

ويرجع السبب فى نشأة هذا الفن وتطوره الى نمو الشخصية الأندلسية من جهة وتعدد مجالس اللهو والغناء من جهة ثانية وسهولة شعر الموشحات وانتشاره ، هذا فضلا عن سهولة اللغة والألفاظ المستعملة من جهة رابعة حتى وجدنا سيطرة العامية فيه ، وأغلب الظن أن هذه الموشحات كانت تنشد فى مجالس لا تعنى العناية كلها باللغة العربية الفصحى ويظهر ذلك من تسرب اللغة العامية الى بعض أجزاء الموشحة واذلك أعجب بها المستمعون اعجابا شديدا .. ومن هنا بلغت الموشحة أوج عزها فى العصر المرابطى » .

وهكذا كانت روح العصر لا تعد ذلك خروجا عن المألوف

---

(٣٠) قصة الأدب فى الأندلس ص ١٠٦ د/ خفاجة .

ولا نستنكر إذ أن أميل الى السهولة في الألفاظ شاع وأصبح هم الشعراء أن يلتفوا حولهم وينشدوا شعرهم ويطربوا لسماعه »(٣١) .

ومما سبق يتبدى لنا أن الموشحات فن أدبي نشأ في الأندلس نتاجا للموهبة العربية الاسلامية وقد ساعدت عدة عوامل على بلورته ولئن كان ثمة آثار مشرقية أو أسبانية لها دورها في هذه النشأة فهي لا تعدو جزئيات بسيطة ملحوظة في أولياتها ، وأن الدارس لآراء الأدباء والنقاد يجد الكثير منهم من يقسم في عمومه بروح عميقة من المحافظة حرصا منه على أن يستند الحاضر على أساس ثابت وهذه الأسس الثابتة تأتي من الماضي حتى لايعمل الحاضر من فراغ أو يصوغ على غير مثال ولكن حرصا منا على الصواب والوصول الى القول الحق وحرصا على العمل في اطار ثقافي واضح ومشروع ينبغي أن ندرك أن الرؤية الفنية لا تكون فعالة الا اذا عملت ضمن سياق واضح يعطيها معناها وقيمتها ويبرزها باعتبارها حلقة في تطور .

والمتتبع لحياة الشعر — عامة والموشحات خاصة — في المشرق والأندلس يجد أن هناك من العوامل والظروف ما ساعد على ايجاد هذه الظاهرة وبروزها ماثلة للعيان من غير قول قاطع بأنها مشرقية أو أندلسية خصوصا وأن هناك حدا فاصلا بين بيئتين بعيدتين في الشعر العربي بيئة المشرق ، والأندلس ، وهذا التقسيم مرده — بالطبع — الى الاختلاف والتفاوت الواضح بين المشرق والمغرب بسبب التفاوت الذي لحق بالشعر في الأندلس ، وهذا يعني أن هناك من

---

(٣١) دراسات أدبية في شعر الأندلس ص ٩٥ // د. محمد رضا مبارك .

الخصائص والسمات ما جعل الدارسين يلاحظون فروقا بين الاثنين تجعل الحديث عنها أمرا واردا ومشروعا .

أما ما يتصل بالمشرق فمن الملاحظ أن الشعراء فيه مهما اختلفت مذاهبهم ومهما نوعوا فى الصياغة والطريقة وفنون القول فانهم جميعا ينهلون من معين واحد ويصدرون عن ذهنية واحدة ويتقاربون فى التفكير والتعبير .

ولكن فى المجتمع الأندلسى الوضع يختلف فى الحياة الاجتماعية والفكرية والبيئية والطبيعية والثقافية والحضارية ، وكان على الشاعر الأندلسى أن يساير هذه الحياة الجديدة وأن يعبر عنها فى تطورها الجديد والا كان عاجزا عن التعبير ولهذا اذا ما تركنا الشعر فى المشرق وانتقلنا الى الأندلس وجدنا الكثير من المظاهر التى تختلف صورها وتنمو مع الحياة فيها وتتطور بتطورها بتأثير الفتوحات واختلاط العرب بأهل البلاد المفتوحة فى خارج جزيرتهم .

فقد تحواوا ونهضوا نهضة واسعة فى الغناء الذى اتسع وكثر مما ورثوه من ثقافات متنوعة وأدى هذا كله الى نوع من الاحتكاك والتفاعل بين العرب وغيرهم من الأمم الأخرى بما يحملون من ثقافة وفكر ، وعندما نأخذ ونحلل ثقافة وفكر الشعب الأندلسى نجدها مستمدة من جداول كثيرة : جدول عربى يتمثل فى العرب القادمين من المشرق والمحبين للشعر العربى الأصيل ومعرفة أوزانه وقوافيه وجدول أجنبى يتمثل فى أصحاب البلاد المسلمين بمعرفة الثقافة والفكر الأجنبى وأن العرب أصبحوا فى عصر جديد يختلف عن المشرق فى بعض الشىء فى الحضارة والثقافة والعادات والتقاليد ، فكان طبيعيا أن تظهر فى شعرهم الموشحات ، والأزجال وتتطور .

ومن الملاحظ أن هذا التطور الذى أصاب الشعر وما صحبه من صور جديدة كان فى تحوله عن صناعة الشعر المعروفة فى القديم — الملتزم الوزن والقافية — ونما نموا سريعا وواسعا ، فقد أقبل صناع الشعر يتبارون فى الاهتمام به ويوفرون له كل ما يساعد فى تجويده وتنميقه حتى وصلنا مرحلة ظهرت فيها الموشحات فنا وأضحى اتجاها له أصحابه وله سماته وخصائصه ، ومن ثم فقد عد لونا أدبيا جديدا فى الأندلس ، ولهذا يقول بعض الباحثين « وكان فن الموشح بصيغة وطرقه الكثيرة المعروفة من ابتكار الأندلسيين وشاع فى البيئة الأندلسية شيوعا كبيرا وتعددت أوزانه وقوافيه كما تعددت طرقه وكان ينظم أولا فى الغناء ثم شاع نظمه فى أغراض الشعر المختلفة »(٣٢)

وهناك من يستنكر الرأى القائل بأنها مشرقية النشأة فيقول : « ورأى أن أصحاب هذا الاتجاه يغالون فى ربط المغرب بالمشرق ويأبون الا أن يتحسسوا أصولا مشرقية لكل ما هو طريف أو غير طريف بالأندلس »(٣٣) .

والواقع أن ظهور مصطلح « الموشح » واستخدامه فى تراثنا العربى قد اقترن بظهور هذا اللون الشعرى الجديد على أيدى طبقة من شعراء العصر الأندلسى عرفوا بالتفنن والتأنق والولع والاكثار منه على نحو لم يكن مألوفا من قبل لدى شعراء المشرق .

---

(٣٢) البناء الفنى للقصيدة العربية ص ١٢٢ د/ خفاجى . مكتبة القاهرة ط — أولى .

(٣٣) دراسات أدبية فى الشعر الأندلسى ص ٩١ د/ سعد اسماعيل

« وقد انتقل التوشيح ـ بعد شيوعه بالأندلس ـ الى بلاد المغرب والمشرق فنبغ فيه كثير على رأسهم ابن سناء الملك وقد فتح فيه فتحا جديدا واحدث أنواعا وأوزانا لم يسبق اليها »(٣٤) .

وهذا يؤكد أن أصل النشأة نبع من الأندلس ثم بعد ذلك انتقل الى المشرق بعد شيوعه فى الأندلس ، والواقع أن هذا الرأى لما يدعم رأى الدكتور هيكل : « .. وأما كون نشأة الموشحات قد جاءت نتيجة لظاهرة اجتماعية فبيانه أن العرب امتزجوا بالأسبان وألفوا شعبا جديدا فيه عروبة وفيه أسبانية .. وكان لابد أن ينشأ أدب يمثل تلك الثنائية اللغوية فكانت الموشحات »(٣٥) .

ويقول فى موضع آخر : « ... ومن هنا نقول : ان الموشحات قد ظهرت تعبيرا عن ظاهرة اجتماعية ، ثم تلبية لحاجة فنية ثانيا»(٣٦) فهو يعبر بلفظ « ظهرت » وهذا يعنى ما يقرره العديد من الأدباء والنقاد فى القديم والحديث وما نطمئن له ، ولأن نقول : من الأمور التى تحسب للشعراء الأندلسيين ابتكارهم لفن الموشحات ، ولم يقفوا عند حد الابتكار بل أكثروا من هذا الفن ونوعوا ونبغوا رغم حداثته وأكثروا من موضوعاته التى اشتغل بها لدرجة جعلته يسير مع الشعر الموروث فى كل الأغراض رغم أنه يغاير القصيدة العربية فى نظمه وأيقاعه فهو يخالف الشعر فى الخروج على وحدة القافية والتزامه بقواعد تميزه . اذ تتنوع القوافى فيه الى جانب أن ما يتكون منه

---

(٣٤) البناء الفنى للقصيدة العربية ص ١٣٧ د/ حنفاجى .

(٣٥) الأدب الأندلسى من الفتح الى سقوط الخلافة ص ١٥٠ د/هيكل

النص غير ما يتكون منه الشعر اذ يعتمد على عدة أجزاء أولها يعرف بالمطلع أو المذهب وهو غير لازم فهو الموشحة وهذا ما جعل الموشحة بهذا الشكل أصلح للغناء من الشعر الموروث نظرا لخفتها وتنوع قوافيها وسهولة ألفاظها وهذا ما يؤيد ما نريد الوصول اليه من أن فن الموشحات من ابتكار الأندلسيين اذ هي التي تناسب حياتهم التي عاشوها بما فيها من لهو وطرب وغناء يتطلب التجديد الذي يناسب الحياة التي يحيونها ويحبونها فأبتكروا « فن الموشحات » .

---

(٣٦) دراسات أدبية ص ١٠٥ د/ هيكل : دار المعارف الطبعة الأولى سنة ١٩٨٠م .

(أسباب نشأة الموشحات)

استجابة وقد عملت عدة عوامل على اظهار هذا اللون الشعرى ووجوده فجاءت نشأتها استجابة لحاجة فنية ، وأخرى لغوية ، وثالثة اجتماعية.

أولا : العـــامل الفنى :

ازدهرت الموسيقى فى الأندلس فى القرن الثالث الهجرى ازدهارا ملحوظا ، خاصة حين قدم زرياب من المشرق ، فقد نجح فى ادخـــال بعض التجديدات على الموسيقى والغناء مما جعلها تتم ز [illegible] يقى الشرقية ، اذ زاد وترا خامسا فى أوتار العـــود ، وانخ [illegible] وادم النسر مضرابا على أنه وضع تقاليد جديدة فى الغناء بأن جـ [illegible] نازل يختلف من المقدمة الى الوسط والنهاية فيفتتح الغناء بالنشيد أولا ، ثم يأخذ ثانيا بالبسيط ويتلوه الخرج ثالثا ، وهكذا بتنويع متجدد .

وقد اقتضى هذا التنويع قصائد غنائية مختلفة الأوزان متنوعة الأنغام والألحان ، والموشح فى شكله قد يكفل مثل هذا التنويع (١) ، ولذلك ظهر الموشح محققا هذه الغاية المطلوبة .

ثانيا : العـــامل اللغوى :

كان لامتزاج العرب الفاتحين بالأسبان سكان البلاد الاصـــليين أثر واضح فى ظهور الازدواجية اللغوية فقد عرف العرب العـــامية

---

(١) انظر الأدب الأندلسى د/ أحمد هيكل ص ١٤٣ ، وعصر الطوائف والمرابطين د/ احسان عباس ص ٢٣٢ دار الثقافة بيروت الطبعة الثالثة سنـــة ١٩٧٤م .

اللاتينية الى جانب عامية العربية ، وكان لابد من ظهور أدب يمثل هذه الثنائية أو هذه الازدواجية فكانت الموشحات .

وهذا بعينه ما يقرره بعض الباحثين حيث يقول :

« وشعب الأندلس مزيج من عناصر عربية وافدة من المشرق مع الفتح الاسلامى أو بعده وعناصر غير عربية أهمها هذا العنصر الأوربى المحلى الذى كان يسكن أسبانيا قبل العرب وبرغم أن العرب أصبحوا العنصر الغالب وبرغم أن اللغة قد صارت اللغة الأولى فان رواسب كثيرة من الأصول غير العربية التى امتزجت بها العناصر العربية ظلت تعمل عملها فى تشكيل الاطار الحضارى للأندلس كما أن اللغة اللاتينية العامية التى كانت لسان القوم فى أسبانيا قبل الوجود العربى ظلت ــ على وجه من الوجوه ــ تمد اللسان الشعبى بكثير من الكلمات والتركيب ليس بين ذوى الأصول الأسبانية وحدهم ممن يسمون بالمستعربين بل بين ذوى الأصول العربية أنفسهم من حكام وقواد وشعراء مشاهير وهكذا كان المجتمع الأندلسى يتسم بشىء من الازدواج العنصرى واللغوى »(٢) .

والواقع أن الامتزاج اللغوى الذى كان فى المجتمع الأندلسى ليظهر أثره فى شعر هذا المجتمع الذى أوجد الشعر الشعبى الذى ظهر فى مجالات الأدب الشعبى الذى كان نتيجة لامتزاج العنصرين واللغتين وان كان هذا مقصورا على بعض الأندلسيين أو على قلة

(٢) دراسات أدبية ص ١٠٢ د/ أحمد هيكل .

منهم لأن الغالبية من الأصل العربى واللغة العربية هى المسيطرة فى مجال الفكر ، والأدب الفصيح هو الظاهر والغالب ، ومن هنا وجدنا الدكتور هيكل يقول :

« أما كون نشأة الموشحات جاءت نتيجة لظاهرة اجتماعية فبيانه أن العرب امتزجوا بالأسبان وألفوا شعبا جديدا فيه عروبة وفيه أسبانية وكان من مظاهر هذا الامتزاج أن عرف الشعب عامية اللاتينيين كما عرف عامية العرب أى أنه كان هناك ازدواج لغوى نتيجة للازدواج العنصرى »(٣) .

ولذلك يقول ابن بسام عن مخترع الموشحات أن ذلك المخترع كان « يأخذ اللفظ العامى والعجمى ويسميه المركز ويضع عليه الموشحة »(٤) .

وعندما يتحدث الدكتور هيكل عن الاتجاه الشعبى فى فترة صراع الامارة يقول : « ونعنى به اتجاه الموشحات ويصف الباحثون الموشحات بالشعبية لأنها فى الواقع فن شعرى نشأ فى أوساط الشعب لارضاء حاجة الشعب ، ولأنه كان يستخدم فى بعض فقراته اللغة العامية ، ويعتمد فى تعابيره أحيانا على أجزاء من أغنيات شعبية »(٥) .

---

(٣) الأدب الأندلسى من الفتح الى سقوط الخلافة ص ١٥١ د/ أحمد هيكل .

(٤) الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة ق ١ ص ١ لابن بسام .

والظاهرة الأدبية شأنها شأن أى نشاط فكرى ولغوى تستمد من التراث بقدر ما تستجيب لظروف العصر من مطالب ومن ثم فان أى تجديد مقيد بحكم انتمائه الى بيئة ثقافية معينة كبيئة الأندلس ولغتها ، وليس غريبا أن تكون حركة التجديد فى الشعر الأندلسى استجابة لاثراء الفنون الشعرية وتطوير الصورة الفنية وترقيق الاسلوب ولكن دون أن تجرؤ على تحطيم الشعر العمودى أو تحطيم البناء القصيدى تحطيما تاما ، ولكن تطور بما يتمثل فى اتساع الفنون الشعرية بسبب ما وجد فى بيئتهم .

ثالثا : العامل الاجتماعى :

أما كون الموشحات جاءت نتيجة لظاهرة اجتماعية فيتلخص فى أن الأندلسيين مالوا الى الرقة والدعابة والمجون وكان فى نفوسهم نزوع الى الحرية والانطلاق من كل ما من شأنه أن يكون قيدا .

واذلك فقد شعروا بضرورة الخروج على التقليد الموسيقى فى القصيدة المعروفة فكانت الموشحة التى مهد لها من هذه الناحية ما أوجده شعراء الأندلس .

ويمكن القول كذلك أن الميل الى الانطلاق والتجديد حملهم على مغايرة شعر طريقة العرب ، لأنه لا يتناسب واسلوب حياتهم ودفعهم الى البحث عن لون جديد يسير مع المجتمع الجديد والشعب الأندلسى اذ « تميز الشعب الأندلسى بسمات خاصة جعلته مجتمعا فريدا بين

---

(٥) الأدب الأندلسى من الفتح الى سقوط الخلافة ص ١٤٥ د/ أحمد هيكل .

(٦) دراسات أدبية ص ١٠٢ د/ أحمد هيكل .

مجتمعات الأمة العربية وكان للوضع الجغرافى من جانب والتعدد العنصرى من جانب آخر ، ثم للظروف والحضارة المختلفة التى عاش فى ظلالها هذا الشعب أبلغ الأثر فى تكوين تلك السمات ثم فى انضاجها فى أدب الأندلسيين وسائر فنونهم وبخاصة الشعر الشعبى »(٦) .

ومن كل ما سبق نرى أن الأدب عامة والشعر خاصة مظهر من مظاهر الحياة الانسانية اذ « على صفحة الشعر المتألق تتحد نسمات الحياة وترتسم صور المجتمع وفى مرآته المجلوة تتعاقب الخلجات النفسية التى هى حقيقتها أصداء تلك الحياة وتمثيل لواقع ذلك المجتمع فالشعر الصادق هو ما عبر عن مجتمعه وأفصح عن مدى انفعال الشاعر وتأثره بكل ما يجرى حوله »(٧) .

والشعر الأندلسى لم يشذ عن هذه القاعدة واذ كان الشعر فى أدق مفهومه هو التعبير الجميل بالكلمة عن تجربة انسانية عاشها الشاعر أو تعايش معها وانفعل بها فاننا من خلال هذا المفهوم الواضح ندرك أن الموشحات الأندلسية كانت استجابة للحياة الاجتماعية والظروف المجتمع الأندلسى .

ان الأوضاع الاجتماعية التى وجدت فى بلاد الأندلس وهى تتمثل فى النواحى الاقتصادية والمستوى الحضارى وظروف المجتمع الأخرى من مثل الحرية بشتى مظاهرها من لهو ، وشراب ، وندوات ومجالس ، لهى من الأمور التى تؤثر فى الانتاج الفنى عند الشاعر

---

(٧) دراسات فى تاريخ الأدب العربى فى أزهى عصوره القسم الثانى ص ٣٧ ، د/محمد خفاجى ، وعبد الرحمن عثمان ، مطبعة المدنى سنة ١٩٧٣م

فى شعره لأنها تنمى مواطن الاحساس عند كل فرد من أفراد المجتمع وتسيطر على مشاعره وأحاسيسه(٨) ٠

فالأوضاع الاجتماعية هى التى تملى عليه أن يعبر عما يحس به اذ أن الشعر الجيد هو الذى يكون صورة صادقة لمجتمعه وهى التى تفرض على الشاعر ما يحس به فى مجتمعه لأنه ابن المجتمع الـذى يعيش فيه وبالتالى لابد أن يتأثر به وبما فيه من رخاء وجدب وعادات وتقاليد وبداوة وحضارة « فالحضارة والرخاء مما يؤثر فى الـذوق ويزيد فى الصور والمناظر وينوع فى معانى الأدب وأغراضه فالمعانى التى تخطر للمتحضرين غير المعانى التى تخطر لأهل البادية،والأغراض التى يقول فيها أهل الحضر غير أغراض البدويين ، والألفاظ الحضرية تلائم حياة المتحضر رقة وعذوبة ووضـوحا وحسن استقصاء ولهـذا تجد الفروق عظيمة بين شعر العرب قبل أن يتحضروا وبعد أن تحضروا فى مصر والشام والعراق والأندلس »(٩) ٠

وقد قال صاحب الوساطة : « ٠٠ ولما ضرب الاسلام بجرانه ٠٠ وفشا التأدب ، والظرف اختار الناس من الكلام ألينه وأسهله »(١٠)

وقد أدرك ابن رشيق أثر المجتمع فى كثرة المعانى وانهـا تزداد باتساع الأمصار وكثرة الحواضر وتأنق الناس »(١١) ٠

---

(٨) راجع الشعر الجاهلى ص ١٣ د/ محمد خفاجى ٠

(٩) الحياة الأدبية ص ١٣ د/ محمد خفاجى ، د/ صلاح عبد التواب ٠

(١٠) الوساطه ص ١٧ بين المتنبى وخصومه للجرجانى تحقيق محمد أبو الفضل مطبعة عيسى الحلبى سنة ١٩٨٦م ٠

(١١) راجع العمـدة ٢/ ٢٣٨ لابن رشـيق تحقيق محيى الدين ٠ دار الجيل – بيروت ٠

والشاعر الأندلسى تفاعل مع مجتمعه واستجاب له وكانت النتيجة هى الاستجابة لما يتناسب وروح العصر والمجتمع ، والشاعر الأندلسى ليس لديه ما يحول دون التعبير عن أحاسيسه ومشاعره فى حرية كاملة تتجلى فى كثرة المجالس وما يدور فيها من غناء وترف بشتى ألوانه وطبيعى أن يكون لهذه الحرية تأثير على الشعر والشاعر حيث « كانت مجالس الأدب فى الأندلس من أكبر مسارح الأفكار وأفخم مظاهر الجمال وأجمع أنواع الأدب واللهو والجد والهزل ومظهر الحياة العقلية والاجتماعية . والشعراء فرسان هذا الميدان ، والكلام وحده آلة التعبير عن ذلك بأساليبه المختلفة البليغة وكان الشعر نشوة الشارب وغناء الراقص ومؤدب النفوس وزاجرها ، وساوة الفقير والغنى ومعزة الشريف والسوقى .. فبرع أهل الأندلس فى فنون الأدب والشعر براعة شهد لهم بها جلة الناس »(١٢) .

والشاعر الأندلسى لم يقف جامدا أمام ما ورث من أوزان قديمة بل جدد فى الأوزان الشعرية بسبب ما شاع عندهم من طرب وغناء ونهضة فى الشعر عامة جعلتهم يستحدثون أوزانا جديدة تلائم حياتهم وهى المعروفة بالموشحات والأزجال .

وطبيعة الأندلس هى التى جعلت الأندلسى يجدد فى الأوزان ما يتناسب مع الرقص والطرب « ولو كان الأندلسيون جامدين على التقاليد واقفين عند حدوده لما أحدثوا هذا الحدث الجديد فى الأوزان

---

(١٢) بلاغة العرب فى الأندلس ص ٢٣ الأستاذ / أحمد ضيف . الطبعة الأولى مطبعة مصر ١٣٤٢ هـ .

الشعرية .. وبذلك استطاعوا أن يتجاوبوا مع بيئتهم وما كان فيها من ترف ولذة ونعيم »(١٣) .

فقد كان منهم من ينظم ويلحن ويغنى كأبى الصلت أمية بن عبد العزيز الأشبيلى ... وهكذا كانت عنايتهم بالألحان واختراع الأوزان المناسبة »(١٤) .

وقد كان التلحين ضروريا عند شعراء الأندلس ، وما اخترعوا الموشحات الا لأن أوزانها أحفل به من أوزان الشعر ولذلك لا يقنع التوشيح موقعه من السمع الا اذا خرج ألحانا »(١٥) .

ومن هنا فاذا بحثنا عن علة ظهور الموشحات فاننا نجدها استجابة للتحرر من تلك القيود والحدود التى نراها قد تبدلت لأنها لا تلائم العصر الذى فرض على الأديب أن يغير فى الأوزان والقوافى حتى يهىء نفسه لظروف المجتمع ويحدث لونا جديدا يتفق وظروف العصر « وليس التجديد فى موسيقى الشعر بدعة من بدع هذا العصر وانما التجديد فى هذه الموسيقى أمر أحس الشعراء بالحاجة اليه منذ أقدم العصور خطوا نحوه خطوات ، وخطوات .. فما كاد العرب يخرجون الى بيئات جديدة حتى تبدلت نظرتهم الجمالية نوعا ما ،

---

(١٣) الأدب العربى فى الأندلس ص ٧٣ د/ حسن جاد ، د/ محمد خفاجى . الطبعة الأولى المطبعة المحمدية .

(١٤) راجع تاريخ آداب العرب جـ ٣ ص ٢٩٧ الأستاذ الرافعى .

(١٥) المرجع السابق جـ ٣ ص ٢٩٧ .

وتغيرت مع ذلك موسيقى شعرهم نوعا من التغير فمن حيث الوزن قد عرفوا تلك البحور الجديدة التى لم تكن قد عرفت لديهم أيام الخليل وهى ما تعرف ببحور المحدثين ومن حيث القافية عرفوا كذلك فيها نوعا من التنويع تتشابه فيه كل مجموعة متماثلة من أبيات القصيدة على أن تغاير كل مجموعة سابقتها ولاحقتها ومن هنا كانت الرباعيات وكانت الخماسيات وما اليها هذا فى المشرق »(١٦) .

هذا فى المشرق فما بالنا بالأندلس وبالشاعر الأندلسى الذى اختلفت ظروف مجتمعه عن كل المجتمعات الأخرى ، فلكى يستطيع الشاعر نقل أفكاره من عقله الى عقول الآخرين فعليه أن ينحى قيود الشعر الموزون المقفى — شعر الخليل — الذى يطالب بالالتزام فى الشعر ويلجأ الى ألوان جديدة يؤديها بأوزان خفيفة لتغذية روح الشعب ووجدانه فى شعب ومجتمع صعبت عليه قيود القديم اذا فكيف تؤدى القوالب الشعرية الموروثة مهمتها ؟

وبالتالى بدا يبحث عن الطريقة المثلى لنقل الأفكار والعواطف الانسانية وصياغة شكل جديد يظهر فى صورة قوالب جديدة استجابة الجماهير اللامحدودة فى المجتمع الأندلسى وبالتالى مازالت ملح على الشعراء هذه الأفكار الجديدة مسلحة بمنطق من واقع الشخصية الأندلسية وجماهيرها وهى دعوة تتركز على ابتكار لون جديد من الشعر ويتمجد هؤلاء الدعاة بأنهم يعيشون فى واقع الشعب لايترفعون عنه ولا يتحدثون اليه بغير لغته ولا يحاولون أن يتمسكوا بالقديم

---

(١٦) دراسات أدبية ص ٧٨ د/ أحمد هيكل .

الموروث الذى يحتاج الى معاناة وكد والى تنسيق يضيع الوقت فهم قانعون بلغتهم لتنقل أفكارهم الى جماهيرهم التى يعيشون معها ويعيشون لها .

ولهذا « قد أحدث الأندلسيون فى الشعر الموشحات والزجل وأكثروا من الغناء به ، وقربوا بين لغة الشعر ولغة الشعب الى حد كبير »(١٧) .

وهذا بعينه ما يقرره الكثير من الباحثين عندما يذكرون أن أمر التجديد فى موسيقى الشعر ليس بدعة وانما هو استجابة لمطالب العصر يحس بها الشاعر وتمليها عليه ظروف عصره وهذا ما جعل الدكتور أحمد هيكل يقول : « ... أما فى بلاد الأندلس فقد كانت موسيقى الشعر أكثر تطورا وأعظم استجابة لمقتضيات البيئة الجديدة وذوقها الفنى ، فهناك اخترعت الموشحات التى تتنوع فيها الأوزان تنوعا رائعا وتتلون القوافى تلونا بارعا وتتوزع الموسيقى الشعرية توزعا « سيمفونيا » ومعروف أن تلك الموشحات وما تطورت اليه من أزجال كانت من خير ما أنتج الأندلسيون من أدب .

اذن فمسألة التجديد فى موسيقى الشعر حق لكل عصر ولكل جيل ولكل بيئة أيضا مادامت المسألة مسألة عنصر جمالى يتأثر بذوق كل جيل ويختلف من بيئة الى بيئة ومن عصر الى عصر »(١٨) .

---

(١٧) الأدب العربى وتاريخه ٢/١٦٩ د/ سليمان الأغانى وآخرين.
(١٨) دراسات أدبية ص ٧٩ د/ أحمد هيكل .

هذا الى جانب الثـــراء الذى وجد عنـــد الأندلسيين من طبيعـــة الأرض وخصوبتها وكثرة الحدائق ووفرتها ، وقد كان الثراء الموســـع جديرا بأن يفتح عيون الشعراء على مناحى الترف والرفاهية التى لم تكن بهذه الصورة فى المشرق ، فجدير بهم أن يهتدوا الى أنمـــاط من الطرب وأنواع من الترنم والمواقف الوجدانية المتصلة بالغناء ، وهذا ما جعل بعض الباحثين يقول : « الذى يمكن الاطمئنان اليه هـــو أن الموشحات قد بنيت على أغنيات أندلسية محلية ... والمعقول أن مخترع الموشحات انما أفـــاد من هذه الأغنيات الشـــعبية لأنه سيأخذ غالبا ألفاظا عامية يجعلها مركز موشحته ، والأغنيات هى المـــدد الأول لتلك الألفاظ وخاصة حين يكون الاقتباس لعمل مشابه وهو الموشحات ذات النشـــأة الغنائية »(١٩) .

ويقول : « وهكذا ظهرت الموشحات فى الأندلس كأول شكل من أشكال الفن الأدبى الشعبى عبر بها المجتمع الأندلسى عن نفسه »(٢٠)

---

(١٩) الأدب الأندلسى ص ١٥٧ د/ أحمد هيكل .

(٢٠) دراسات أدبية ص ١٠٤ د/ أحمد هيكل .

(الموشـــحة بين الحرية والالتزام)

١ ــ ويتضح مما سبق من دراسة نشأة الموشـــحات وملاءمتها لظروف العصر والمجتمع الأندلسى والذى تظهـــر فى استجابة الشـــعر لحاجة الشخصية الأندلسية التى تطلبه لونا جديدا من الشعر ــ شعر الموشحات ــ وجود الحرية فى نظم هذا اللون من الشعر بعيـــدا عن القيود الموروثة من القديم سواء كان فى الوزن أو القافية • وعنـــدما نذكر لفظ الحرية نذكره بقدر لأننا لا نعنى الحرية المطلقـــة التى تطلق للشاعر العنان من غير قيود أو التزام واكنها الحرية المقيدة التى تساعد على الانطلاق والازدهار من غير أن تؤثر على الأسس وهذا هو الفن بعامة والموشحات بخاصة لأن الفن الشعرى ليس محاولات عشـــوائية يقوم بها الشاعر وينشد شعره حيثما اتفق له فالشعر فن من الفنـــون له قواعده وأصوله وأسسه التى تساعد الأديب والشاعر وتهيئه ليكون شاعرا بحق ، ورغم أن الشـــعر يختلف عن العلم الذى له قـــوانينه وتجاربه وملاحظاته ، والذى يتوقف النبوغ فيه على الحفظ والقواعد، والدليل على ذلك أن ليس كل حـــافظ لبحور الشعر شـــاعرا ، فلابد للشاعر من موهبة وطبيعة مواتية ولابد من صقل هذه الموهبة وتعهدها بكثرة المدارسة والالتزام بقواعد ذلك الفن والسير على أسسه •

واذا بحثنا عن فن الموشحات فاننا نجدها تتألف من قافية ووزن وفى كل منهما نجد الحرية ويلازمها جانب الالتزام فالحرية تتمثـــل فى التنويع الذى يوجد فى الأغصان حيث تغاير قافية كل غصن قافية باقى الأغصـــان •

فالموشحة تتألف من خمس فقرات تسمى كل فقرة بيتا ، والبيت في الموشحة ليس كالبيت في القصيدة لأن بيت الموشحة فقرة أو أجزاء من الموشحة يتألف من مجموعة أشطار ، لا من شطرين فقط كبيت القصيدة ، وكل فقرة من فقرات الموشحة الخمس ينقسم جزأين الجزء الأول : مجموعة أشطار تنتهى بقافية متحدة فيما بينها ومغايرة فى الوقت نفسه المجموعة التى تقابلها فى فقرة أخرى من فقرات الموشحة، أما الجزء الثانى من جزئى بيت الموشحة فهو شطران أو أكثر تتحدا فيهما القافية فى كل الموشحة والجزء الأول الذى تختلف فيه القافية من بيت الى بيت يسمى غصنا والجزء الآخر الذى تتحد قافيته فى كل الموشحة يسمى قفلا »(١) .

فهى تتنوع فيها الأوزان وتتلون القوافى ، وهنا تظهر الحرية فى القافية .

٢ ــ أما حرية الوزن :

ففى جواز استخدام البحر الذى تصاغ على وزنه الموشحة فى عدة حالات من حالاته أى من حيث التمام والجزء والتشطير وبعبارة أوضح يجوز فى الموشحة أن يكون بعض أشطارها من بحر على تفاعيله التامة ، وأن يكون بعض الأشطار الأخرى من نفس البحر ولكن على

---

(١) راجع الأدب الأندلسى من الفتح الى سقوط الخلافة ص ١٤٦ د/ أحمد هيكل .

تفاعيله المشطورة أو المجزوءة ، فتأتى بعض الأشطار طويلة عديدة التفاعيل وتأتى أخرى فى نفس الموشحة قصيرة قليلة التفاعيل بل أنه يجوز أن تأتى بعض الأشطار من بحر والبعض الآخر من بحر ثان ، وهذا ما جعل بعض الباحثين يعرف الموشحة بقوله : « الموشحة منظومة غنائية لا تسير فى موسيقاها على المنهج التقليدى الملتزم وحدة الوزن ورتابة القافية وانما تعتمد على منهج تجديدى متحرر نوعا ، بحيث يتغير الوزن وتتعدد القافية ، ولكن مع التزام التقابل فى الأجزاء المتماثلة »(٢) .

وهذا هو وجه الاختلاف عن الشعر القديم ـ شعر الخليل ـ لأن نظام الموشحة يختلف عن نظام القصيدة التقليدية «من وجهين : الوجه الأول أنه يتألف من صورتين أو لحنين والوجه الثانى : أن كل صوت تجرى فيه شطور متتابعة وتتكون أنغام الصوت الأول عادة من شطرين أو من أربعة أو ستة وقدها تلتزم قوافى الشطور كلها فى الموشحة فهى المركز الذى تدور عليه أو الفلك الذى تجرى فيه .

أما الصوت الثانى فيتألف عادة من شطور ثلاثة وقد يزيد الى سبعة ولا يلتزم فيه سوى الوزن أما القوافى فتختلف من دور الى دور . أما فى الدور الواحد فتلتزم بنفس الصورة فى جميع الشطور أن تألفت من شطور وفى الشطور المتقابلة ان تألفت من أبيات ذات شطرين(٣) .

---

(٢) الأدب الأندلسى من الفتح الى سقوط الخلافة ص ١٤٥ ، ١٤٦ د/ أحمد هيكل .

(٣) فى النقد الأدبى ص ١٠٤ د/ شوقى ضيف . دار المعارف ـ الطبعة الخامسة سنة ١٩٧٧م .

ومن هنا يتضح أن الموشحة تخالف القصيدة فالوحدة فيها ليست البيت المفرد وانما القطعة المركبة سواء ألفت من وزن واحد ، أو من وزنين ، ولكل صوت أو لحن وزنه الخاص • ومعنى ذلك أن فن الموشحات فن تصاحبه الحرية المقيدة فليس للشاعر مطلق الحرية فى التأليف ورص الكلمات ولكنها حرية مقيدة بأوزان وقوالب ، ولهذا لم يكن التوسع فى فن الشعر فى الأندلس على حساب اهمال الوزن والقافية مطلقا ولكن الالتزام بالسير على خط القديم والاستفادة منه ومراعاة قواعده ، وهذه هى الحرية المقننة بأوزان الماضى والتى تتيح للفن الجديد التوسع والتوليد • يؤكد ذلك من يقول : « ولكن لانظن انهم حين عددوا الأوزان والقوافى فى الموشحة واصطنعوا هذا النظام الجديد فيها تساهلوا فى النغم الذى تتألف منه،وكل ما أرادوه هو تنويع النغم حتى ينوعوا الانفعال الذى يفد الى قلب السامع ولكنهم قيدوا هذا النغم بقيود شديدة حتى لا تفقد الموشحة الجمال الصوتى القديم فى القصيدة فقد التزموا فى المركز أو القفل وحدة القوافى فى شطوره المتقابلة وتظل هذه الوحدة فى جميع المراكز وكأن ما نقصهم من توحيد القافية فى جميع أبيات القصيدة أكملوه بهذا التعادل الدقيق فى قوافى الشطور التى تتكون منها المراكز أو الأقفال فقانون ائتلاف النغم حاد صارم فى الموشحة برغم ما يبدو من تنوع فيه فهو يتغذى من نفس أشعة النغم القديم فى القصيدة »(٤) •

---

(٤) فى النقد الأدبى ص ١٠٤ ــ ١٠٥ د/ شوقى ضيف •

٣ ــ ومن هنا يظهر الالتزام حيث يلتزم فى الموشحة نظام يتبع. ونرى أن الشعر لابد له من خاصتين أساسيتين هما : الوزن الشعرى والقافية ، وبعبارة أخرى فلابد أن يكون للشعر نظام معين فى ترتيب الوحدات الوزنية التى يتألف منها الكلام بحيث ينتج عن ذلك وزن جميل وموسيقى عذبة تنفعل لها النفوس وتتأثر بها القلوب ، ولابد للشعر كذلك من نظام معين فيما يختص بالقافية التى هى نهاية الوحدة الموسيقية الشعرية والتى هى البيت الشعرى فى الشعر العربى القديم » .

وقد يكون هذا النظام على بحور الشعر العربى المعروفة وأشكالها المختلفة ، وقد يكون على غيرها ، كما حدث فى الأندلس مثلا عندما اخترع الأندلسيون أوزان الموشحات ويؤكد ذلك ويؤيده قول ابن سناء الملك عندما حدد تعريف الموشح بقوله : « الموشح كلام منظوم على وزن مخصوص »(٥) .

وهذا ما جعل الموشحات تندرج تحت لفظ الشعر أو مسمى الشعر »(٦) .

---

(٥) دار الطراز فى عمل الموشحات ص ٣٢ لابن سناء الملك .

(٦) راجع نقض أصول الشعر الحر ص ٦٨ ــ ٦٩ للأستاذ/ اسماعيل جراشى العبسى . دار الفرقان ــ عمان .

وأما الالتزام والتماثل ففى وجوب أن يأتى كل جزء من أجزاء الموشحة المتماثلة على نفس الوزن ، والأجزاء المتماثلة هى الأغصان والأقفال فاذا جاء الغصن فى الفقرة الأولى على وزن معين يجب أن تأتى كل الأغصان على نفس الوزن واذا جاء القفل الأول على طريقة خاصة من حيث طول الأشطار وقصرها من بحر ما ، يجب أن تأتى كل الأقفال على نفس الطريقة ، ويلاحظ أن تلك الأقفال يجب أن توافق المطلع الذى يسبق عادة كل الفقرات وهذه الموافقة بين الأقفال والمطلع يجب أن تكون فى الوزن والقافية جميعا (٧) .

(٧) الأدب الأندلسى من الفتح الى سقوط الخلافة ص ٤٧ د/ أحمد هيكل .

(شعر الموشحات بين الأصالة والتجديد)

ليس صدفة أن تحتل هذه القضية مكان الصدارة فى أعمال النقد الأدبى وعند المعنيين بدراسة الأدب العربى ، فأهميتهـا لا ترجع الى أنها تفسر جانبا من جـوانب الابداع الأدبى فحسب ، بل ترجـع فى المقام الأول الى اعتبارها نقطة بدء للانظر فى تطور الأدب والعوامل التى أثرت فيه اجتماعيا وثقافيا وحضاريا والنتائج التى أسفر عنها هذا التأثير سواء من حيث استحداث مضامين أدبية جديدة أو اتباع طرائق وأساليب وأشكال لم تكن موجودة من قبل .

وقضية الأصالة والتجديد زاد الحديث فيها عن الأدب والشـعر بعد أن كثر الأدب وازدهر فى المغـرب وصار ينـافس المشرق ، فمن الأدباء من قال بأن أدب الأندلس تقليد محض لأخيه فى المشرق حتى فن الموشحات ، ومنهم من رفض هذا الحكم وتولى الرد عليه بالأدلة الدامغة . ولكن قبل أن نخوض غمار هذه الآراء للوقوف على الراجح منها ومعرفة منزلة الموشحات بين الأصالة والتجديد نريد أن نبـين المقصود بكلمة « الأصالة » ، و « التجديد » فى هذا البحث .

ان المقصود بكلمة « الأصالة » لا تعنى التشبث المطلق بالموروث والوقوف عند حد القديم كما أننا لا نعنى بالأصالة النسج على منوال القديم واتخاذه مثلا يحتذى من غير اضـافات تقتضيها التطـورات والغاء الذاتية « كما أننا لا نعنى بالأصالة اتخاذ الجديد من القـديم مثلا يحتذى مع بعض الاضـافات التى تفرضـها موهبة المحتـذى

أو تقتضيها طبيعة الظروف المتغيرة فهذا المعنى من الأصوب أن نخصص له مصطلح « المحافظة » .

ومن هنا نقصد بالأصالة الاستقلال التام وتميز شخصية الأديب والشاعر ، ويعرف ذلك بتحقق سمات معينة خاصة »(١) .

أما ما نقصده بالتجديد فهو السير على طريقة جديدة تقوم على شيء من الأسس والقواعد والالتزام وبالتالى يكون « التجديد » الأخذ بالجديد الذى لم يعرف من قبل واستخدامه استخداما فنيا مبدعا .

بهذا التجديد يتضح أن المقصود من الأصالة والتجديد فى شعر الموشحات ليس هو محاولة الغض من القديم لأنه قديم أو الغض من الجديد لأنه ليس قديما أو العكس ، أو محاولة للمفاضلة بين هذا وذاك ، فهما فى الواقع ليسا الجديد خصم القديم أو العكس ، وانما هى محاولة التأكد من أن شعر الموشحات — كأى فن — لابد لبنائه بناء صحيحا أن يقوم على دعامتين متآزرتين هما «الأصالة» و«التجديد» وهذا يقتضى — بطبيعة الحال — بيان عناصر الأصالة فى الشعر العربى والكشف عن مراحل تكونها من القديم حتى استوت فنا متميز السمات ، كما يقتضى الأمر كذلك الالمام بأبرز حركات التجديد وأهم مظاهره فى الفن الشعرى دون أن يمس أصالته « أو يشوه سماته وهذا قد يهدينا الى المعايير الفنية ، ومنها نتعرف على ما نحن بصدد الحديث عنه وهو شعر « الموشحات بين الأصالة والتجديد » .

---

(١) راجع دراسات أدبية ص ٢٨ ، ٢٩ د/ أحمد هيكل .

وفى عجالة سريعة نلم بمسيرة الأدب العربى منذ بدايته فى العصر الجاهلى حتى نهاية العصر الأندلسى لكى نقف أولا ـ على أهم العناصر الباقية على مر العصور وكونت فى النهاية سمات الأصالة • ثم نعرف ـ ثانيا ـ أبرز الروافد التى نمته وطورته خلال العصور ومثلت فى النهاية مدى مرونته وطبيعة تجدده •

وبادىء ذى بدء نقول : لقد كان الشعر فى العصر الجاهلى صورة صادقة لهذا العصر اذ كان يعبر بوضوح عن الانسان العربى فى أحاسيسه ومشاعره الشخصية وعلاقته الجماعية وتفاعله مع الجماعة وكان فى هذه وتلك يصور تجاوب وعواطف انفعل الشاعر بها واهتزت مشاعره حيالها وهذا يدل على الارتباط الشديد ببيئته والافتتان بالتعبير عن كل ما تحويه من الأمور المادية التى تتمثل فى الصحراء والابل والراحلة •• الخ ـ وكذلك المعنوية من الكرم والشجاعة والمروءة ••• الخ وبالجملة فقد كان شعره وعاء حافظا لكل ما آثره من فضائل ولما فضله من قيم •

ومن هنا يمكن ان تبرز الملامح الذاتية المبكرة للشعر العربى وهذه هى الخطوط العريضة للشعر الجاهلى الذى عبر بصدق ووضوح عن المجتمع الجاهلى وبيئته وتجاوب الشاعر الذاتية المستقرة ، والمتأثرة بروح العصر(٢) •

---

(٢) دراسات أدبية ص ٣٠ د/ أحمد هيكل •

وعندما ظهر الاسلام وكان ثورة ضد كل ما هو يتنافى مع الدين الاسلامى والقيم الدينية الجديدة الذى كان ثورة فكرية واجتماعية غيرت كثيرا من القيم المستقرة من العصر الجاهلى والتى أصبحت لا تسير مع روح العصر الاسلامى كان طبيعيا أن يقف الشاعر حيال ذلك ويتوقف الشعر قليلا فى محاولة تقبل القيم الجديدة واستيعابها من جهة ومن جهة ثانية محاولة التخلص من الأفكار والقيم المأثورة وخطأ ظن البعض أن الشعر فى عصر الاسلام صار قليلا وأن الاسلام قد قلل من قيمة الشعر والشاعر لعدم فهم بعض آيات القرآن الكريم فهما صحيحا فظن أن الاسلام حارب الشعر بصفة عامة « والشعراء يتبعهم الغاوون »(٣) .. الخ من الآيات ولكن لم يكن الأمر كذلك وانما كانت فترة انتقال ومرحلة تغير من القديم المرفوض الى الجديد المرغوب فهى مرحلة للتجديد والتكيف ومواكبة لروح عصر صدر الاسلام .

وهكذا تتضح خاصة أخرى من خصائص الشعر العربى أو تبرز سمة من سماته الأصلية وهى أنه شعر متطور لا يعرف الجمود ولا يتحجر عند عصر أو بيئة أو نظام خاص وانما هو مستجيب أبدا لحركة الحياة من حوله مستعد دائما للتكيف معها وهضمها والتعبير عنها حتى لو اقتضى الأمر وقفة مستأنية لمراجعة الماضى درس الحاضر

---

(٣) سورة الشعراء الآية ٢٢٤ .

واستشراق المستقبل ، وتصحيح المسيرة كما فعل فى عصر صدر الاسلام »(٤) •

ومما يؤكد استجابة الشعر لروح العصر أنه عندما بدأ عصر بنى أمية وتعددت الأحزاب وكثر الصراع وتغير وجه الحياة بعض الشىء عن ذى قبل أخذ الشعر يزدهر ويستجيب لروح العصر فتطورت أغراض وجدت أغراض لم تكن من قبل وانما هى حاجة المجتمع وظروفه،وكلها مرتبطة بالماضى وثرائه فى الشكل والأسلوب والتعبير ، وهنا تظهر سمة أخرى من سمات الأصالة فى الشعر العربى وهىعدم تغيره ــ مهما تغير ــ متخلصا من القديم الموروث وانما هو تغير الى التطوير مع الاحتفاظ ببعض سماته الأولى منذ العصر الجاهلى والذى يظهر فى استمرار افتتاح بعض القصائد بالغزل والمرأة فقد وجدنا ذلك فى شعر صدر الاسلام ولدى كبار الصحابة وفى مدح الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ باعتبارها ظاهرة فنية تاريخية قيمتها فى فنيتها •

واذا ما وصلنا الى العصر العباسى بعناصر مجتمعه المتعددة والمكونة من عناصر مختلفة ، عرب وغير عرب ، فرس وروم ، وغيرها، انعكس هذا على الشعر الذى أخذ يعبر عن المجتمع بصورة جديدة تصور ما فى العصر من مجون ولهو وزهد وفلسفة •

---

(٤) دراسات أدبية ص ٣٠ د/ أحمد هيكل

« وهكذا ظهرت ثورة كبيرة فى محيط الشعر العربى مست كثيرا من جوانبه المتصلة بالمضمون أو المرتبطة بالشكل حيث ظهرت الخمريات والمجونيات والغزليات الشاذة الى جانب الزهديات والالهيات والتأمليات الجادة وحيث لجأ كثير من الشعراء الى استحداث منهج جديد للقصيدة ومال الاسلوب الى كثير من السلاسة والبساطة والصقل الذى يلائم حياة المدينة والحضر .. ومن هذه الملامح التى أضافها تاريخ الشعر العربى فى العصر العباسى كذلك والتى شاركت فى تشكيل صورته الأصيلة وطبيعته المميزة بما يلائم حركة الحياة ومتطلباتها فى البيئة الجديدة »(٥) .

ثم كان الوجود العربى فى الأندلس وانتقلت الاتجاهات الشعرية الشرقية الى هناك وأخذ الشعراء الأندلسيون يعبرون عن ذواتهم وبيئتهم مضيفين الى ملامح الشعر العربى اضافات حسبت لهم كتعميق اللون المحلى وتغليب الجانب العاطفى وزيادة التنويع الموسيقى وكان هذا الجانب الأخير هو أهم ما أضافوه الى ملامح الشعر العربى فقد اخترعوا الموشحات مطورين بها موسيقى الشعر تطويرا كبيرا ، وبشيوع هذه الموشحات فيهم وفى كل البيئات العربية ، برز هذا الطابع الذى يجب أن نقف عنده فى طبيعة الشعر العربى وهو أنه قابل دائما لتطور موسيقاه ، ولا يشترط أبدا لذلك الموسيقى أن تكون موسيقى القصيدة الملتزمة وحدة البحر ورتابة القافية ، فقط يجب أن تكون هذه الموسيقى ممثلة عنصرا أساسيا من عناصر العمل الشعرى

---

(٥) دراسات أدبية ص ٣٣ د/ أحمد هيكل .

وذلك بأن تكون من الوضوح بحيث تؤدى وظيفة لا تقل عن تلك التى تؤديها الكلمات والتعابير والصور »(٦) .

واذا كان الأمر كذلك فمن الأجدر بنا أن نثبت أن الشعر العربى لا يعيش بعيدا عن واقع المجتمع وتصوير ما فيه وتأثره بواقع العصر الذى يحيا فيه ، وهذا ما وجد فى الشعر العربى ، خلال تلك المسيرة الطويلة ، من العصر الجاهلى ، حتى العصر الأندلس الذى تنوعت نزعاته وحاول الشعر المسير فى اتجاهاته .

وبهذا يكون « الشعر الأصيل هو ما يفصح عن أفكار الشاعر وأحاسيسه دون تصنع ولا تزوير وذلك يعبر عن شعوره الأصيل ويصدر عن استعداده الفطرى ويكون الشاعر حينئذ طوع انفعاله يذهب به أنى شاء ، فلا يضع فى سبيل أفكاره وعواطفه سدودا تقلل من هديرها أو تعرقل مسيرها »(٧) .

وفى ضوء ما قدمنا نستطيع أن نقرر أن الفنون الأصيلة لدى شعراء الأندلس هى التى تلمح فيها سيطرة عاطفية صادقة ، أو يشيع فيها اختراع بديع ، أو تتخللها أفكار طريفة »(٨) .

فكل فن ابتكر فيه الأندلسيون وأضافوا اليه من ذواتهم،وطبعوه

---

(٦) السابق ص ٣٤

(٧) دراسات أدبية فى الشعر الأندلسى ص ٦٢ د/ سعد اسماعيل شلبى .

(٨) السابق ص ٦٤ .

بأفكارهم نعده من الفنون الأصيلة عندهم .. وما خلفوه من الموشحات والأزجال والأصالة بهذا المعنى سوف نجدها فى نتاج كبار الشعراء كما نجدها فى صغار الشعراء »(٩) .

واذا كان لابد من تحقق « الأصالة » و « التجديد » جميعا لقيام الشعر جيدا باقيا متطورا فلابد من مراعاة عدم طغيان أحد العنصرين على الآخر لأن « الأصالة » اذا طغت على « التجديد » ورطت فى المحافظة أو وقعت فى التقليد . ولأن « التجديد » اذا جار على « الأصالة » جر الى المحاكاة العمياء .. واذن فلابد « للأصالة » من تجديد يكافئها ويسمو بها عن أن تكون تقليدا للقديم أو مجرد محافظة عليه ولابد « للتجديد » من أن يستند دائما الى أصالة تعادله وتعصمه من أن يكون نقلا للحديث واقحاما لشىء غريب على طبيعة الفن الشعرى العربى .

وهكذا نجد لدينا معيارا محايدا .. وهذا المقياس هو : « التآزر بين الأصالة والتجديد(١٠) بمعنى أن الأصالة والتجديد أمران يجب التوفيق بينهما فهما لا يتعارضان بل يعلى كل منهما شأن الآخر ويرفعه .

وبالتالى فاذا بحثنا عن الأصالة فى الشعر العربى وسمات هذه الأصالة فاننا نجد ملامحها تظهر فى الشعر الجاهلى الذى توافرت له سماته الممثلة فى التعبير عن الانسان وتجاربه فى عصره الجاهلى وتمسكه بقيمه ومثله .

كذلك عرفنا سمات الأصالة فى شعر صدر الاسلام ومواكبة

---

(٩) السابق ص ٦٥ .

(١٠) دراسات أدبية ص ٣٧ ـ ٣٨ د/ أحمد هيكل .

العصر وما تلاه من عصور ، وأيضا عرفنا سمات الأصالة فى الشعر الأندلسى ابان ازدهار الأندلس وتقدمها ، كان ذلك واضحا فى مرونة الشعر أمام حاجة العصر وذلك فى تطوير الموسيقى وعدم الاكتفاء بالسير على الموسيقى الشعرية الموروثة من الخليل ، وبهذا تكون قضية « فن الموشحات » بناء على ما انتهينا اليه من اعتبار الموسيقى هى السمة الأساسية فى الشعر فاننا نرى أن تحقق هذه الموسيقى بوضوح فى العمل الشعرى محقق « للأصالة حتى ولو لم يلتزم بموسيقى الخليل وقد ظهر ذلك واضحا فى التغير الذى لحق بهذه الموسيقى فى الشرق قبل الأندلس .

أما الأصالة التى بمعنى الابتكار الخالص أو أن الأصالة عدم السير على طريقة الآخرين فهذا ليس بالصواب كما أن التجديد هو الابتكار الخالص ومخالفة القديم وعدم الاحتذاء به أو محاكاته ، وعدم الاستفادة منه فليس من هذا الصواب فى شىء وها نحن مع بعض آراء الأدباء والنقاد للوقوف على الصواب والاستفادة منه .

ونجد من يقول : ان تأثر الأدب العربى فى الأقاليم كان ضئيلا.. ولعل الأندلس هى أهم الأقاليم فى تاريخ الشعر العربى . غير أن من يعقب الحركة الأدبية هناك يلاحظ أن الشعراء عاشوا على تقليد المشرق فى فنونه ومذاهبه الأدبية ، فلم تؤسس الأندلس لنفسها نهضة مستقلة ، انما كانت تستمد من بغداد ، ولو أنها بدأت حركة مستقلة عقلية لأمكن أن توجد الفوارق بينها وبين غيرها من الأقاليم ولكنها غرقت الى آذانها فى الثقافة العربية العامة التى نهضت بها

بغداد ، وآية ذلك أنها لم تقم بها حركة ترجمة كالتى قامت فى العراق وان الانسان ليخيل اليه أن الأندلس كانت تقليد المشرق فى جميع نواحى الحياة .. ونحن اذا رجعنا الى نماذج الشعر نفسها وجدنا كثيرا منها يصاغ على أنماط مشرقية خالصة لا تقتصر على المشابهة فى الوزن والروى ، بل فى كثير من المعانى والأساليب،وكأنما القصيدة كلها ليست الا تلفيقا للمواد الفنية التى تركها العباسيون ... ولذلك لم يستطع الشعراء أن يتحولوا بالشعر الى وجهات جديدة ، فلم تحدث فيه مناهج أو مذاهب غير تلك المناهج والمذاهب العباسية(١١) .

---

(١١) الفن ومذاهبه فى الشعر للدكتور / شوقى ضيف ص ٤٠٩ وما بعدها بتصرف .

مناقشة فكرة التقليد والرد عليها

مـدى التقليـد :

لاشك أن الدولة العربية بالأندلس كانت مناهضة لمثلها بالمشرق فكان من الطبيعي أن ينافسوا في حيـاتهم السياسية الحياة السياسية في بغـداد .

وكان من الطبيعي كـذلك أن تستـلزم هذه المنافسـة السياسية المنافسة فى مظاهر الحياة العامة فهم يطلقون على كثير من بلـدانهم أسماء مشرقية كما أنهم يحفلون بالغناء والموسيقى على نحـو ما كان فى بلاط الرشيد والمأمون ، ويتأثرون فى حيـاتهم العقلية والأدبيـة بالمشرق . ولعل هذا كما يقول الرافعى : « لأن الأدب العراقى ممتـاز بمتـانة اللغة لقـربه من البـادية ولاستفحال الرواية هناك ولكونه أصـلا »(١) .

ولسنا ننكر أن كثيرا من الكتب الأدبية عند الأندلسيين قد صبغ على شكل الكتب الأدبية عند المشارقة .

هذا هو مدى التقليد عند الأندلسيين منافسة فى الملك والسياسة تبعتها المنافسة فى مظاهر هذا الملك وما يستلزمه من الحياة العملية والأدبية ، وهذا ما عناه « ابن بسام » حين يقول : « الا أن أهل هذا الأفق أبوا الا متابعة أهل المشرق »(٢) .

---

(١) تاريخ الأدب العربى للرافعى ٣/٢٦٢ .

(٢) الذخيرة ١/٢ لابن بسام تحقيق د. احسان عباس طبعة ـ بيروت

أما الشعر فانه لم يقصده كما زعم الزاعمون ، فهو يقول قبل هذه الفقرة فى وصف أهل أفقه : « لعبوا بأطراف الكلام المشقق لعب الدجى بجفون المؤرق ، وحدوا بفنون السحر المنمق حداء الأعشى ببنات المحلق ، نثر او رآه البديع لنسى اسمه ، ونظم لو سمعه كثير ما نسب ولا مدح ، أو تتبعه جرول ما عوى ولا نبح ، ويقول بعد ذلك « أنهم رءوس شعر وكتابة ، تدفقوا فأنسوا البحور ، وأشرقوا فباروا الشموس والبدور »(٣) .

فمن زعم أن شعر الأندلسيين — ككل مظاهر حياتهم — يغيب فى سواد التقليد ويدخل فى شعر الأقاليم الأخرى بحيث يشتبه النسيج وتلتحم الديباجة،فهو لا يعرف الشعر الا بأوزانه ولا يميز غير ظاهره.

الشعر ملكة طبيعية لا تتأتى بالحاكاة وموهبة من المواهب التى لا يختص الله بها جيلا دون جيل ولا اقليما دون اقليم ، فحيث جرت مع الدم فى جسم صاحبها ، ونبض بها حسه ، وتفتحت لها نفسه ، انطلق كالطائر المغرد ، يصدر عنه الشعر دون تكلف كما لابد لابن الدوح أن يترنم .

ثم ان معظم الشعراء الأندلسيين عرب جرى الشعر فى دمائهم وهاجر معهم الى هذه الجزيرة وأية بيئة أصلح للتغريد من الأندلس ؟ وأى روض يبعث على الشعر أجمل من رياض الأندلس ؟ لقد كانت آفاقها العاطرة : ومغانيها الزاهرة وحضاراتها الساحرة : جمالا يهز المشاعر ويوقظ العواطف وينبه غافى الحس ، ويحرك خواطر

(٣) الذخيرة ١/٣ .

النفس ــ وكانت (الظروف) التى تحيط بالشعراء كالكل (الظروف) التى تحيط بهم فى كل أرض وكل اقليم ، فلو أنهم عاشوا فى عزلة تامة عن المشارقة فهل نستطيع أن نحرمهم عاطفة الحب مثلا ، وهى عاطفة يوحى بها الطبع ، وتدعو اليها حرارة الشباب فلا يكون الغزل غرضا من أغراضهم ؟ أو هل نستطيع أن نغفل احساسهم بمظاهر الجمال التى يشعرون بها فى هذا الأفق ؟ وهل نمنعهم من المدح وهو أمر تقتضيه الحياة وتدعوا اليه صلة الشعراء بالملوك ؟ وهل نكذب ، شاعرا كابن سهل الاشبيلى فى احساسه بالحياة والمجتمع ، ونقول انه مقلد ؟

ثم ما هى الأمور التى اقتصروا فيها على التقليد والمحاكاة للمشارقة ؟ أهى الأغراض والفنون مثل المدح ، والرثاء ، والوصف ، والغزل .. الخ ؟ أم التقليد فى الأوزان والقوافى ؟ أم فى المعانى والألفاظ ؟ وهانحن مع هذه الآراء والرد عليها ــ ان شاء الله ــ .

أولا : فى الأغراض :

ان الشعر العربى منذ ميلاده وحتى اليوم لا نجد تجديدا كاملا فى الأغراض أو اهمالا لما ظهر منذ بدأ الشعر ، فهل نتهم الأندلس بالتقليد اذا تغزل أو مدح أو وصف شاعر منهم ؟ وما هى الأغراض التى نلزمهم بها حتى يكونوا غير مقلدين لغيرهم ؟ ثم ما هى الأغراض التى استحدثها المشارقة وأتوا بها زيادة عما كان من قبل حتى نطلب من الأندلسيين أن يأتوا بمثلها .

أليسوا كغيرهم فيهم عاطفة الحب ، وفيهم الاحساس ، والشعور

بالحب والبغض والخوف والحزن والفرح والطمع والرجاء،وهذه هى دواعى الشعر فهل جردوا منها حتى نمنعهم من الغزل ، أو المدح أو الرثاء الى أخر الأغراض ؟

هل نحكم على الشعراء من أمثال ابن زيدون،وابن خفاجة،وابن عباد، وابن سهل ، وابن دراج ، بأنهم كاذبون فى أحاسيسهم ومشاعرهم لأنهم قالوا فى أغراض سبقهم به المشارقة وما هم الا المقلدون .

ثانيا : فى الوزن والقافية :

ونحن نجد من يحمل عنا الرد على من يتهم الشعر الأندلسى بالتقليد لأنه أتى على غرار الأوزان المشرقية ، ويقوم بالرد عليهم ، لأن هذا الأمر يدهشه ويسير العجب عنده فيقول : « وعجيب أمر هؤلاء الواهمين — حين يتعلقون بالقشور ويستندون الى المظاهر . وأعجب من العجب أن يتحكموا فى القوافى والأوزان ، فيحاولوا أن يقصروها على فريق من الشعراء دون فريق ، ولو كان الأمر أمرهم لوقف الشعر العربى عند العصر الجاهلى ، لأن الشعراء الجاهليين قد استنفدوا الأوزان والقوافى فلا يصح لشاعر أن ينظم بعدهم(٤) .

وهؤلاء الزاعمون قد قصروا على الوزن والقافية من غير أن ينظروا الى عناصر الشعر الأخرى ، وهى العاطفة والتجربة الشعورية

---

(٤) الأدب العربى فى الأندلس ص ٧٢ د/ حسن جاد ود/ محمد عبد المنعم خفاجى ، وابن زيدون ص ١٠٥ د/ حسن جاد . مطبعة المنيرة بالأزهر سنة ١٣٧٤هـ — ١٩٥٥م .

وصدق التعبير عن هذه التجربة وهذا أهم ما يقاس به الشعر ويفرق بين جيده ورديئه ، أما القوافى والأوزان فهى ملك لجميع الشعراء من بداية قول الشعر ، الى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، فليست الأوزان والقوافى خاصة بزمان دون زمان ، أو مكان غير مكان ، ولو أننا قلبنا دواوين الشعراء منذ وجد الشعر لوجدنا الكثير من هذه المشابهات فى الوزن والروى ، أما عن غير قصد فتكون عفوا ومن حق الشاعر ، أو عن قصد فتكون معارضة ومنافسة ، يعتد بها الشاعر ويفخر ، لا محاكاة أو تقليدا .

والحق أن الشعر لا يقاس بالوزن ولا بالروى فان البحور والقوافى ملك الشعراء جميعا وانما الشأن للصياغة والمعنى والشعور »(٥) .

وبهذا يكون التقليد فى الوزن والقافية ليس عيبا أو تقصيرا فى الشعر الأندلسى بل بالعكس ، فان الشعر الأندلسى لم يقف جامدا أمام ما ورث من أوزان بل هو الذى جدد فى الأوزان الشعرية بسبب ما شاع عندهم من طرب وغناء ونهضة فى الشعر عامة جعلتهم يستحدثون أوزانا جديدة تلائم حياتهم ، وهى المعروفة بالموشحات والأزجال التى كانت بدايتها على يد الأندلسيين حيث ظهرت هذه الموشحات على أيدى شعراء الأندلس ، وفى هذه البيئة الثرية بجمال الطبيعة حيث ارتقى فى الغناء بتأثير زرياب وتلاميذه رقيا كبيرا ، وكان

(٥) الأدب العربى فى الأندلس ص ٧٣ د/ حسن جاد ، د/ محمد عبد المنعم خفاجى .

ظهور الموشحات حدثا فنيا جديدا فى الشعر العربى أدى اليه تلك الثروة الضخمة التى كسبها الشعر العربى فى الأندلس(٦) .

فطبيعة الأندلس هى التى جعلت الأندلس يجدد من الأوزان ما يتناسب مع الرقص والطرب « ولو كان الأندلسيون جامدين على التقليد،واقفين عند حدوده لما أحدثوا هذا الحدث الجديد فى الأوزان الشعرية ، وبذلك استطاعوا أن يتجاوبوا مع بيئتهم وما كان فيها من ترف ولذة ونعيم »(٧) ، فقد كان منهم من ينظم ويلحن ويغنى كأبى الصلت أمية بن عبد العزيز الأشبيلى المتوفى سنة ٥٢٣هـ،وهكذا كانت عنايتهم بالألحان واختراع الأوزان المناسبة لها(٨) .

ثالثا : فى المعانى :

أما اذا كان العيب يرجع الى تقليدهم فى المعانى فهذا أمر تعرض له النقاد منذ القدم وقد رأيناه موجودا عند الشعراء منذ العصر الجاهلى ، ونحن نعلم أن أمرأ القيس كان يبكى الديار كما بكى ابن خذام وهو أمير الشعراء فى ذلك العصر فيقول(٩) :

عوجا على الطلل المحيل لأننا نبكى الديار كما بكى ابن خذام

---

(٦) البناء الفنى للقصيدة العربية ص ١٠٦ د/ محمد عبد المنعم خفاجى . مكتبة القاهرة الطبعة الأولى .

(٧) الأدب العربى فى الأندلس ص ٧٣ د/ حسن جاد ، د/ محمد عبد المنعم خفاجى .

(٨) راجع تاريخ آداب العرب ج ٣ ص ٢٩٧ الأستاذ / الرافعى .

(٩) ديوان امرىء القيس ص ١٦٢ ـ دار الصادر بيروت .

وهذا يدل على أنه يأخذ من غيره كما فعل غيره من الشعراء،أخذ بعضهم من بعض ممن سبقوهم .

فكان زهير يقول : ان الشعراء لا يقولون الا معارا،وعنترة يعترف بأن الشعراء لم يغادروا من متردم .

وبهذا فتداول المعانى بين الشعراء ليس بالجديد أو الغريب حتى يعاب به الشاعر الأندلسى(١٠) .

وقد تحدث عن هذا كثير من النقاد ولست أطيل كثيرا فصاحب الصناعتين يقول : « ليس لأحد من أصناف القائلين غنى عن تناول المعانى ممن تقدمهم والصب على قوالب من سبقهم ، ولكن عليهم — اذا أخذوها — أن يكسوها ألفاظا من عندهم ويبرزوها فى معارض من تأليفهم ويوردوها فى غير حالتها الأولى ، ويزيدوها فى حسن تأليفها وجودة تركيبها وكمال حليتها ومعرضها ، فاذا فعلوا ذلك فهم أحق بها ممن سبق اليها ولولا أن القائل يؤدى ما سمع لما كان فى طاقته أن يقول(١١) « وهذا ما وجدناه عند الأندلسيين فقد كانوا يأخذون المعانى ، ولكن بعد أن يصوغوها بأسلوبهم ويعرضوها فى ثوب جديد يختلف عن المشارقة ، ويتفق وبيئتهم وحياتهم « والسمة العامة للمعانى الأندلسية ، ذلك هو عرض المعنى فى ثوب جديد ، والتأنق فى

---

(١٠) راجع ابن زيدون ص ١٠٧ د/ حسن جاد ، الأدب العربى فى الأندلس ص ٧٤ د/ حسن جاد ، د/ محمد عبد المنعم خفاجى .

(١١) الصناعتين ص ٢٠٢ لأبى هلال العسكرى تحقيق د/ محمد أبو الفضل — عيسى الحلبى .

رسمه وتلوينه حتى اذا المعنى أصله وتطلبه معنى جديدا واحساسا طريفا ، فهم يأخذونه بالتحرير أو النقص أو الزيادة أو الشرح ، حتى تحس بشخصيتهم فيه واضحة جلية ، وتعترف لهم بالتجديد فى هذا التصرف ، وماذا نطلب منهم غير هذا(١٢) ؟ وكيف نعيب الشعر الأندلسى لأنه سار على ما كان عليه الشعراء من قبل ؟ هل قلد شعراء الأندلس من غير أن يعبروا فى شعرهم عن عاطفة وتجربة ، أم أن الأندلسى تناول المعانى القديمة أو المشرقية ثم صاغها بأسلوب فنى صادق معبر عن شعوره وما يدور فى صدره من أفكار ومعانى .

والحق أن القول بأن الشعر الأندلسى — عامة وشعر الموشحات خاصة — تقليد أو هو صورة طبق الأصل لأخيه المشرقى لأنه تقليد لأفكار غيرهم فى المعنى فهذا قول لا يقبله عقل لأن تداول المعانى ليس معناه التقليد الذى يبعد الشعر الأندلسى عن صفة الأصالة بدليل أن النقاد القدماء لا يعتدون بالمعانى ، ولا ينظرون اليها على أنها عنصر هام من عناصر الشعر الجيد يقول الجاحظ كلمته المأثورة : «ان المعانى مطروحة فى الطريق »(١٣) . ويقول صاحب الصناعتين : « المعانى مشتركة بين العقلاء »(١٤) ويقول ابن خلدون : « ان صناعة الكلام نظما ونثرا انما هى فى الألفاظ لا فى المعانى »(١٥) .

---

(١٢) الأدب العربى فى الأندلس ص ٧٤ د/ حسن جاد ، د/ محمد عبد المنعم خفاجى .

(١٣) البيان جـ ١ ص ٤٠ للجاحظ تحقيق د/ عبد السلام هارون طبعة سنة ١٩٤٧م القاهرة .

(١٤) الصناعتين ص ٢٠٢ لأبى هلال العسكرى ت/ محمد أبوالفضل

(١٥) المقدمة ص ٤٢٥ لابن خلدون . المكتبة التجارية الكبرى بمصر .

مدى حظ الموشحات من الأصالة والتجديد

تعد الموشحات من الألوان التجديدية التى عرفها الشعر العربى فى الأندلس • وقد وقف منا النقد الأدبى فى الأندلس بالذات موقفا خليقا بالأكبار والاعجاب ، وان كنا قد وجدنا البعض عزوفا عن قبول الموشحة كبناء فنى تجديدى ، فابن حزم الظاهرى لم يعدها فى فضائل الأندلس ، ولم يشر أية اشـــارة على الرغـــم من أنه كان فى مسيس الحاجة الى التعلق بكل ما يجسد للأندلسى شخصيته الأدبية المتميزة ، فدلل بشعراء مشارقة قضوا شطرا ، من حياتهم فى الأندلس حـــين وسع من مفهوم الأندلسية ليستوعب أمثالهم ويؤصل للادب والثقافة فى الأنـــدلس•

وأغلب الظن أن ابن شهيد لم يأبه لها ولا اذكر شعرائها ، اذ كان معنيا بالاشادة بمن يجرى على نمط فحول الشعراء المتقـــدمين ممن عارض المشارقة ، كأبى المطرف عبد الرحمن بن أبى الفهد ، وابن دراج القســـطلى •

وصمت حيالها الحميدى صاحب جذوة المقتبس الذى فاخر بمآثر الأندلسيين فقد عرف أعلام الموشحات كأبى عبادة بن ماء الســـماء ، والرمادى دون أن يجعلها فى حسناتهم وفضلهم(١) •

ولولا الملامح التى عرض لها ابن بسام صاحب كتاب « الذخيرة

---

(١) راجع جذوة المقتبس ص ٢٩٣ جـ ٣ من المكتبة الأندلسية ترجمة رقم ٦٢٢ •

فى محاسن أهل الجزيرة » وهو بصدد تطورها ـ ظلت أزمة هذا الجديد فى طى الكتمان • وقد أبان ابن بسام عن موقفه من الموشحة ويمكن تحديد أسباب رفضه لها ورفض السابقين له بما يلى :

أولا : اللغة :

فقد اختلطت لغة الموشح بالعامية وهى عامية العربية المستخدمة لألفاظ من عامية اللاتينية ، بالاضافة الى تضمينها الأمثال العامية والمأثورات الشعبية ، يقول ابن بسام « وأول من صنع أوزان هذه الموشحات واخترع طريقتها محمد بن محمود القبرى ، وكان يأخذ اللفظ العامى والعجمى ويسميه المركز ويضع عليه الموشحة » •

ثانيا : طريقة العرب فى أوزانهم :

تطاول الأندلسيون على الأوزان التقليدية المستعملة والمطردة فى قصائد فحول الشعراء هذه الأوزان التى استقراها الخليل بن أحمد فاستقرت معالمها وتغيراتها من زحافات وعلل ، وهو ما نأى عنه صانعوا الموشحات حين عمدوا الى الأعاريض المهملة فنظموا عليها •

ومعروف أن هذه الأعاريض مما يحفظ ولا يقاس عليه تماما كما هو الشأن فى اللغة فى شاذها ونادرها وهو فصيح فى حينه ، ولكن لا يجوز للمتأخر أن يستخدمه استخدام المتقدم لفصاحة الأول وعدم فصاحة الثانى •

فاللغة لايقاس عليها كما قال أهل اللغة،فالعروض قياسا على ذلك لا يقاس عليه ، وفى ذلك يقول ابن بسام : « وكان يصفها (والحديث

عن القبرى) على أشطار الأشعار غير أن أكثرها على الأعاريض المهملة غير المستعملة .. وأوزان هذه الموشحات خارجة عن غرض هذا الديوان اذ أكثرها على غير أعاريض أشعار العرب »(٢) .

ثالثا : الدين والخلق :

أنكر ابن بسام الموشحة لأثرها الضار الناجم عن سماعها اذ كانت تدور حول الغزل والنسيب وهى أوزان كثر استعمال أهل الأندلس لها فى الغزل والنسيب تشق على سماعها مصونات الجيوب بل القلوب »(٣) .

ولعل ابن بسام رفضها لخوفه من تقوية اتجاه يضعف الروح العربى الذى يراد له أن يظل متماسكا تجاه عواصف الانقسام والفرقة التى كانت تعصف بالأندلس فى القرن الخامس الهجرى من من كل جانب(٤) .

ولا يمكن فصل هذه الأسباب بعضها بعضا فى نظرة نقاد الأندلس الى الموشحة بل تتعاضد جميعا وتتلاحم فى دائرة قداسة اللغة وعظمة الموروث .

أما عن رأى المحدثين فى الموشح فالاجماع معقود عندهم على أنه ظاهرة فنية جمالية حضارية تدل على موهبة ابتكارية الا أن منهم

---

(٢) الذخيرة ص ٤٧٠ ، ٨٠٢ تحقيق د. احسان عباس .

(٣) السابق ص ٤٦٩ .

(٤) دراسة فى مصادر الأدب د/ أحمد الطاهر مكى ص ٢٦٧ .

من دافع عن التحرر العروضى فيه ، فجعل جمالا الموشح مستمدا من حرية وزنه التى تقودها الأذن الموسيقية وضرورات التلحين(٥) .

ومنهم من عد الموشح أول ثورة حققها الشعر العربى فى ايثار الايقاع الخفيف الذى يقرب الشقة بين الشعر والنثر فاضعفت من أجل ذلك العلاقات الاعرابية كثيرا(٦) .

ومنهم من سلكه فى الاتجاه الشعبى(٧) .

ومنهم من نسبه الى عصر الانحطاط الأدبى .. وهكذا تباينت وجهات النظر فيه .

واذا كان لابد لنا من كلمة نقولها فى هذا الصدد فاننا نقبل الموشح الشعرى الذى رفضه ابن سناء الملك الذى ساد القرن السادس وما بعده كاتجاه مضاد للموشحات السابقة .

أما لماذا نقبله فللأسباب التالية :

١ ــ فصاحة لغته ، وخلوه من العامية .

٢ ــ صحة أوزانه ، وجريانه على أوزان العرب التقليدية .

---

(٥) انظر فى الأدب الأندلسى د/ جودت الركابى .
(٦) عصر الطوائف والرابطين د/ احسان عباس ص ٢٤٤ .
(٧) الأدب الأندلسى د/ أحمد هيكل ص ١٣٨ .

٣ ــ تنوع قوافيه وتعددها بما يكفل له تنويعا فى النغمة .

٤ ــ اقتران مضمونه .

ونحن بهذا الموقف انما ننطلق من أن هناك ثوابت لا يجوز الاعتداء عليها كالأوزان الشعرية واللغة . وهناك متغيرات يجرى فيها الابتكار والتجديد كالمعانى والصور والقوافى والشكل الفنى وما الى ذلك .

الموشح ومراحل تطـوره

١ ــ المرحلة الأولى (القرن الثالث الهجرى) :

ويختلف مؤرخو الأدب فى تحديد مخترع الموشحات فابن بسام يعد محمد بن حمود القبرى أول مخترع لهـا ، ويرى آخرون ومنهم ابن خلدون أنه مقدم بن معافى القبرى ، وقد يظن أن أحد الاسـمين تحريف للاخر ، خاصة انهما ينتهيان بالنسبة الى قبرة القرية المقـاربة لقرطبة وكانا متعاصرين فى زمن الأمير عبد الله بن محمـد المروانى ، والحقيقة أن الشاعرين معروفان ولهما تراجم مدونة .

وقيل : ان ابن عبد ربه صـاحب كتاب العقد الفـريد أولّ من سبق الى هذا النوع من الموشحات وقال ابن سعيد : انّ ابن عبد ربه أخذ الموشح عن مقدم بن معافر القبرى .

وقد لا يعنينا هذا الخلاف كثيرا ، وانما الذى يعنينا أن القـرن الثالث الهجرى كان قد ظهر فيه الموشح بشكل جلى بدلالة أن شاعرين متعاصرين أو أكثر ينظم كلّ منهم على سياقه ونهجه ، وقد يعطى هذا حقيقة هى أن الموشح عرفت له محاولات سابقة عن القبريين (محمـد ومقدم) وانهما لذلك لم يعرف أيهما أسبق فى ذلك .

على أن ابن عبد ربه مستبعد من هذا الاختراع لأنه لو كان لـه دور فيه ما خلا منه كتابه « العقد الفريد » الذى فاخر فيـه بعض الشعراء المشارقة،زد على ذلك أن ابن عبد ربه هاجم فى العقد جنوح الناس الى الأساليب السوقية وتخليهم عن الفصاحة ــ والموشحات ــ

كمـا هو معروف ـ تتضـمن ألفاظا عامية بل أعجمية كمـا فى الخـرجة(١) .

وعلى الرغم من أن موشحات هذا الجيل لم تصل الينا الا أنه يمكن تصويرها بما يلى :

١ ـ تبنى على الأعاريض غير المستعملة .

٢ ـ لم يكن فيها تضمين أو أغصان .

٣ ـ ربما كانت أقرب الى العامية منها الى العربية كأن يأخـذ (القبرى) اللفظ العامى والعجمى ويسميه أتركز ويضع عليه الموشحة دون تضمين فيها ولا أغصان »(٢) .

٢ ـ المرحلة الثانية : (القرن الرابع الهجرى) :

ويعد يوسف بن هارون الرمادى علمـا على تطور الموشـحة فى هذه المرحلة ، وأهم ما أضافه الرمادى أنه اعتمد الوقف (تجـزئة الأسطر) فى القفل (المركز) تحقيقا للتماثل الموسيقى ، وفى ذلك يقول ابن بسام : « ثم نشأ يوسف بن هارون الرمادى فكان أول من أكثر فيها التضمين في المراكز يضمن كل موقف يقف عليه فى المركز خاصة فاستمر على ذلك شـعراء عصره كمكرم بن سـعيد وابن أبى الحسن »(٣) .

---

(١) الذخيرة ص ٤٦٩ تحقيق د/ احسان عباس .

(٢) الموشحات الأندلسية د/ محمد زكريا عنانى ص ٧٧ .

(٣) الذخيرة ص ٤٧٩ .

٣ ـ المرحلة الثالثة : (القرن الخامس الهجرى) :

وكان عبادة بن ماء السماء وعبادة القزاز أظهر شاعرين طورا الموشحة فى هذه الفترة .

فقد جعل عبادة بن ماء السماء الوقف فى الأغصان زيادة على الوقف فى الاقفال الذى أحدثه الرمادى .

يقول ابن بسام : « ثم نشأ عبادة فأحدث التغيير وذلك أنه اعتمد مواضع الوقف فى الأغصان فيضمنها كما اعتمد الرمادى مواضع الوقف فى المركز »(٤) .

أما عبادة القزاز فقد هذب ألفاظ الموشحة اذ جعلها فى غاية الرقة والشفافية . يقول ابن بسام : « فأما ألفاظه فى التوشيح فشاهدة له بالتبريز والشفوف » .

ولمعرفة معنى الوقف الذى أدخله عبادة بن ماء السماء فان موشحة عبادة بن ماء السماء أو موشحة عبادة القزاز توضح ذلك اذ يقول :

من ولى فى أمة أمرا ولم يعدل يغزل الالحاظ الرشاء الأحمش (مطلع) .

جرت فى	حكمك فى قتلى يا مسرف	
فانصف	فواجب أن ينصف المنصف	(دور)
وأرأف	فان هذا الشوق لا يرأف	

---

(٤) المرجع السابق ص ٤٦٩ .

علّ قلبى بذلك البارد السلسل ، ينجلى ما بفؤادى من جوى
مشعل (قفل) فقد قسمت أغصان المطلع والقفل والأسماط الى أجزاء أو وحدات تعبيرية يقف عليها الوشاح وكذلك المغنى فيزيد الموشح جمالا موسيقيا زائدا وتأثيرا واضحا فى جذب السامع الى المتابعة .

٤ ــ المرحلة الرابعة : (ما بعد القرن الخامس الهجرى) :

ومن الوشاحين فى هذه الفترة ابن زهر الحفيد ، ابن زمرك ، لسان الدين بن الخطيب ، ابن سهل الأشبيلى .

ويمكن ملاحظة ما يلى فى هذه المرحلة :

١ ــ بدأ الموشح الشعرى ظاهرة واضحة مضادة للموشح الأعجمى فى خرجته والخارج عن الأوزان فى عروضه .

٢ ــ لم يعد الموشح قاصرا على الغزل وما يرتبط به من وصف للمجالس والرياض والخمر بل عم النظم فيه الأغراض الأخرى كالمدح والرثاء والتصوف .

٣ ــ استقر البناء الهيكلى للموشح ، واذلك فقد اعتمد ابن سناء الملك على هذه الفترة فى التقعيد للموشح فى كتابه « دار الطراز » .

البنـــاء الفنى للموشـــحة

تركيب الموشـــحة :

تتكون الموشحة من العناصر التالية :

١ ــ المطلـــع :

وهو الجزء الأول من الموشحة وأقل أشطاره اثنـــان ويمكن أن تصل نادرا الى تسعة أو عشرة،وهو فى موشحة ابن سهل قوله(١) :

هـــل درى ظبى الحمى أن قـــد حمى ... قلب صب حلـــه عن مـــكنس
فهـــو فى حـــــر وخـــفق مثلمـــــا ... لعبت ريح الصـــبا بالقبس

ويحسن فيه أن تتفق القوافى فى الأجزاء الأولى (الأشطار) وهى هنا فى (حمى ومثلما) وقد تختلف قوافى الأشطار الأولى فيـــه وليس بعـــيب .

واذا بدأ المرشح بهذا المطلع سمى تاما ، واذا لم يبدأ به سمى الموشح أقرع ويسمى هذا المطلع فى الموشح التام القفل أيضا .

٢ ــ الغصن والسمط :

اختلف الباحثون فى دلالـــة هذين المصطلحين فمنهم من قال : الغصن هو الأجزاء التى يبدأ بها الموشح ويتكون منها المطلع ، ومنهم من قال : هى الأجزاء التى تلى المطلع : ومن سمى أجزاء المطلع أغصانا

---

(١) ديوان ابن سهل الاشـــبيلى تحقيق يسرى عبـــد الغنى عبد الله ص ٤٤ دار الكتب العلمية بيروت .

فقد سمى الأجزاء التى تلى المطلع أغصانا . ولكل وجهة نظر من غير دليل ، لأنها مصطلحات توارثها مؤرخو الأدب ، غامضة غير مفسرة ، فاجتهد الباحثون فى تفسيرها ، وتميل الى عد أجزاء المطلع أغصانا .

والغصن : هو كل شطر من أشطار المطلع أو القفل أو الخرجة ، وتتساوى الأغصان فيها عددا وترتيبا (أفقيا أو عموديا) وقافية فى كل الموشح .

٣ ــ الـــدور :

وهو مجموعة الأشطار أو الأجزاء التى تلى المطلع اذا كان الموشح تاما ، ويقع فى مستهل الموشح ويبدأ به اذا كان الموشح أقرع،ومثاله من موشح ابن ســهل(٢) :

بادروا أشرقت يوم النـــوى غررا تسلك فى نهج الغرر
ما لنفسى فى الهوى ذنب سوى منكم الحسن ومن عينى النظر
أجتنبى اللذات مكلوم الجــوى والتذاذى من حبيبى بالفكر

ويشــترط فيه ما يلى :

١ ــ أن تتكرر الأشطار بنفس العدد فى بقية الموشح .

٢ ــ أن تتنوع القافية الموحدة فى الأشطار فى هذا التعــدد ،

---

(٢) ديوان ابن سهل الاشبيلى تحقيق د/ احسان عباس ص ٢٨٣ .

بمعنى أن تتوحد القافية فى الدور الواحد ، ولكنها تختلف كلما بدأ دور جديد بقافية موجودة .

٣ ــ أن تنظم على وزن المطلع .

٤ ــ أقل عدد للدور ثلاثة أشطر وأكثره تسعة .

٤ ــ السمط :

وهو كل شطر من أشطر الدور ولا يقل عددها عن ثلاثة وقد تزيد حسب رغبة الوشاح . والمهم أن يلتزم العدد فى بقية الموشح تبعا لما يتفق فى عدد الأسماط الأولى المكونة للدور مما يلى المطلع ، وقد يكون السمط مفردا أى من فقرة واحدة ، أو شطر واحد ، وقد يكون مركبا من فقرتين ، ويلاحظ أن قافية الفقرات الأولى موحدة فى الموشح السابق ، لابن سهل فهى (النوى ، سوى ، الجوى) ... وهكذا .

٥ ــ القفل :

وهو ما يلى الدور ويبدأ به الموشح التام ، وعدده فى الموشح التام ستة وفى الأقرع خمسة ، وقد لاحظ ابن سناء الملك أن الموشح « يتألف فى الأكثر من ستة أقفال وخمسة أبيات » .

وهناك عدد من النصوص خرج على هذه القاعدة ، ومن أشهر النماذج فى هذا الصدد موشحة لسان الدين بن الخطيب(٤) .

جادك الغيث اذا الغيث همى ... يا زمان الوصل بالأندلس

(٣) هامش ديوان ابن سهل الاشبيلى ص ٤٤ .

وتضم أحد عشر قفلا(٤) .

ويتفق القفل مع المطلع وزنا وقافية وعدد الأجـزاء ولذلك كان القفـل الأول من موشح ابن سهل :

هل درى ظبى الحمى أن قد حمى قلب صب حله عن مكنسى ؟
فهـو حـر وخفق مثلمـا لعبت ريح الصبا بالقبس

والقفـل الثانى :

كلما أشكوه وجدى بسما كالربى بالعارض المبنجسى(٥)
اذ يقيم القطر فيـه مأتما وهى من بهجتها فى عرس .. وهكذا

وقد يسمى القفـل مركزا(٦) .

٦ ــ البـيت :

ويتألف من الدور مضـافا اليه القفل الذى يليه ، وهو يختلف بهذا التركيب عن البيت فى القصيدة التقليدية اذ انه فيها مجموع من صدر وعجز (شـطرين) .

---

(٤) فى الأدب الأندلسى د/ جودت الركابى ص ٢٩٣ .
(٥) ديوان ابن سهل الاشبيلى ص ٤٦ .
(٦) الأدب الأندلسى د/ صوفى الشكعة ص ٣٧٧ .

٧ ــ الخـــرجة :

وهى آخر قفل فى الموشحة ، ويشترط فيها ما يشترط فى القفل من حيث عدد الأغصان والقافية والوزن ، ولكنهم شرطوا فيها شروطا زائدة اذ عدها ابن سناء الملك أهم جـزء فى الموشح ودعـا الى أن ينظمها الوشاح أولا ، لأن وزنها وخفتها مما يبنى عليه الموشح .

وأهم هذه الشروط ما يلى

١ ــ أن تخالف لغتها لغة الموشح بأن تكون عامية .

٢ ــ أن تكون معبرة عن المجون والسخف واللهو « والشرط فيها أن تكون حجاجية من قبل السخف زمانية من قبل اللحن ، حارة محرقة حادة منضجة .. وقـد تكون الخرجة عجميـة اللفظ بشرط أن يكون لفظها أيضا فى العجمى سفسافا نفطيا ورماديا زطيا »(٧) .

٣ ــ أن يجعل الخروج اليها وثبا واستطرادا بأن يمهد اليهـا فى البيت السابق لها يقال أو قلت أوأنشد أو أنشدت لينبـه بذلك على قيمة ما يلى ذلك .

أنواع الخـرجة :

وللخرجة أنواع ثلاثة :

١ ــ خرجة فصيحة ، ولا تكون الا فى الموشـح الشعرى وقـد

---

(٧) دار الطراز ص ٣٠ ــ ٣١ تحقيق د/ جودت الركابى .

شرط ابن سناء الملك فيها أن تكون لاهية فى غزلها ، ومثالها من موشح ابن سهل الأشبيلي(٨) :

قلت لما أن تبدى مقامـــا وهو من الحاظه فى حـــرب
أيها الآخذ قلبى مغنمـــا أجعل الوصـــل مكان الخمس

٢ ــ خرجة فصيحة غير معربة و (عاميـة) ومثـالها من موشح الأعمى التطيلى(٩) :

ما على من يلـــوم لو تناهى عنـــى
هل سوى حب ريم دينـــــه التجنـــى
أنـا فيـه أهيـم وهـــو بـى يغنـى

قـد رأيتك عيان ــ لبس عليك ســاتدرى ــ سايطول الزمـان وستنسى ذكرى فهذه خرجة عامية تعتمد التسكين ، وتخلط الألفـاظ الفصيحة بالألفاظ العامية بادخال بعض الحروف أو فى تركيب الجمل.

٣ ــ خرجة أعجمية : وهى الأكثر دورانا عند الأندلسـيين فى موشحاتهم ، ومثالها من موشحة لابن القزاز .

وغـادة لم تـــزل تشكو أن لا ينصـف
يا ويح من يتصـل بحبـل من لا يسـعف

(٨) ديوان ابن سهل الاشبيلى ص ٤٨ تحقيق يسرى عبد الغنى .
(٩) فى الأدب الأندلسى ص ٣١٦ د/ جودت الركابى .

لما رأته يطيل وهي غراما تكلف
غنت وما للامل الا اليه مصرف
ميو سيدى ابراهيم يا نوا من دلج فأنت مجيب دى نخت
ان نون شنون كارشى بيريم تيب عزمى أدب لقرت

ومعنى هذه الخرجة : يا سيدى ابراهيم ، يا صاحب الاسم العذب ، أقبل الى فى المساء فان لم ترد جئت اليك ، ولكن أين أجدك(١٠) .

أوزان الموشحات :

تنقسم الموشحات من حيث أوزانها أربعة أقسام :

١ ــ ما بنى على أشعار العرب ، وهو ما جاء موزونا ببحور الشعر العربية الستة عشر ، وقد سمى الموشح ــ الذى انضبط بأوزان العرب ولغتهم الفصيحة من غير لحن أو ادخال للاعجمية ــ بالموشح الشعرى .

٢ ــ ويلحق بالقسم الأول ما جاء على أعاريض الشعر المهملة وقد أشار الى ذلك ابن بسام وهو بصدد التأريخ لنشأة الموشحة فقال : « وأول من صنع هذه الموشحات بأفقنا واخترع طريقتها فيما بلغنى، محمد بن حمود القبرى المحرر ، وكان يصنعها على أشطار الأشعار،

(١٠) انظر تفصيلا بهذه الخرجات فى أصول التوشيح د. سيد غازى ص ٤٥ .

غير أن أكثرها على الأعاريض المهملة غير المستعملة »(١١) .

٣ ــ ما جاء على أوزان الشعر المعروفة ولكنه يخرجه منها زيادة فى الشعر بحركة أو كلمة أما مثال الكلمة فقول ابن بتى :

صــبرت والصبر شية العــانى ولم أقــلْ للمطيلْ هجرانى

معــــذبى كفــــانى

فالبيت من بحر المنسرح والخرجة منه الزيادة فى «معذبى كفانى»

ومثال ما دخله حركة أخرجته عن الوزن التقليدى قول الشاعر :

يا ويح صب الى البرق له نظر وفى البكاء مع الورق له وطر

فهذا البيت من البسيط الا أن التزام حركة الخفض فى (البرق) و (الورق) أخرجه عن وزنه .

٤ ــ ما لا مدخل لشىء منه فى أوزان العرب ، وهذا القسم هو الكثير الغالب والعدد الذى لا ينحصر وقد حــاول ابن سناء الملك أن يستخلص عروضا لهذا النمط من الموشــحات ولكنه لم يستطع لأنهــا كثيرة العدد ولا تنضــبط الا بالتلحين .

وكان ابن بسام قد أشار الى هذا النوع من الموشحات فقال : « وأوزان هذه الموشحات خارجة عن غرض هذا الديوان (الذخيرة)

---

(١١) الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة ص ٤٦٩ تحقيق د. احســان عباس .

اذ أكثرها على غير أعاريض أشعار العرب(١٢) ٠

وتجدر الاشارة الى أن المستشرق الألمانى (هارتمان) حاول ارجاع أوزان هذا اللون من الموشحات الى [١٤٦] وزنا(١٣) ٠

وقد حاول أحد الباحثين المعاصرين أن يحلل أوزان موشحات أبى الحسن الششترى كذلك(١٤) ٠

(١٢) الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة ص ٤٦٩ تحقيق د/ احسان عباس ٠

(١٣) فى الأدب الأندلسى د٠ جودت الركابى ص ٣٠٢ ٠

(١٤) الموشحا الأندلسية د٠ محمد زكريا عنانى ص ٤٢ ٠